مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات

وهى مختار ما كتبه الكاتب من الرسائل فى جريدة المؤيد أو غيرها من الجرائد
تحت عنوان «النظرات» أو غيره من العناوين ما كتبه من الرسائل ولم ينشره

الجزء الثالث

الطبعة الأولى
٢٠٢٣م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية
قصص وروايات

تصميم الغلاف:
هاجر محمود

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

المنفلوطى، مصطفــى لطفى بن محمد لطفى بن محمد،
1872 - 1924.
النظرات/ بقلم: مصطفى لطفى المنفلوطى.
ط 1 – القاهرة: دار المعارف، 2023
296 ص، 19.5 سم.
تدمك 3 9342 02 977 978
1 – المقالات العربية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 814
رقم الإيداع: 5161/ 2023
رقم أمر التشغيل: 60/ 2021 /1
رقم الكونجرس: 1 - 841611 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

الرثاء

ما أنسَ لا أنسى رجلًا كان خيرَ مَنْ لقيت مِنْ الرجال، وكان يعجبني منه أدبه وفضله وعفَّته وحياؤه وشرف نفسه وطهارة قلبه، وأنه كان صبورًا محتملًا، تقرع الخطوب صفاة قلبه، فترتد عنها نابيةً كما ترتد الكرة عن الحائط إذا قرعتها.

كان فقيرًا لا يملك من هذه الدنيا أكثر مما يقيم صلبه، ويمسك حوباءه، ويستر سوءته، فزوجه أبوه بابنة عمٍّ له ذات مالٍ، لم يكُ مثلها في دمامتها وسوء خلقها وجفاء طبعها ممن يطمع في مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه؛ لأنه كان برًّا به مطيعًا له، نازلًا عند أمره ونهيه، وعن مجافاة زوجه واطراحها والانقباض عنها؛ لأنه كريم الأخلاق واسع الصدر، رفيقًا بالضعفاء والمنكوبين، فتزوجها وفي نفسه من المضض والارتماض ما يلهب الجوانح، ويذيب لفائف القلوب.

وأذكر أني على طول معاشرتي له ولصوقي بنفسه ما سمعته ولا سمعت عنه أنه شكا إلى أحدٍ من الناس ما يواثب قلبه عند النظر إليها، أو إلى ما يدب من عقارب شرها إليه، ثقةً منه بالله ورحمته، وإيثارًا لفضيلة الصبر، وسكونًا إلى ما جرت به الأقلام في ألواح المقادير، فكنت أرحم صمته وسكونه، وأبكي لجمود عينيه عن البكاء؛ لأني أعلم أنَّ نيران الأحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات.

وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأنعمها أنه كان يسافر في كل شهر مرةً أو مرتين إلى صديقٍ له في بلد ريفي ناءٍ يقضي فيه يومين أو ثلاثة، ثم يعود وفي ثغره ابتسامةٌ تتلألأ تلألؤ نجمة الصبح عند انحدارها إلى الغروب، ثم لا تلبث أن تتلاشى، ولا يلبث أن يعود إلى جموده الأول، لا يحزن فيبكي ولا يفرح فيبتسم، حتى يُخَيَّل للناظر إليه أنه في عالم غير هذا العالم، لا يظله ليل ولا يضيئه نهار.

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من آلام قلبه ما يحسب أني أجهله، فأكاتمه ذلك العلم جهدي رفقًا به وإجلالًا وإشفاقًا عليه، حتى زرته في منزله ذات يوم فرأيته جاثمًا في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد أطرق إطراقًا طويلًا ذهب فيه عن نفسه، فلم يشعر بخفق نعلي حتى أخذت مكاني، فرفع رأسه، فأدهشني من منظره اصفرار وجهه، وذبول عينيه، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه، ثم نظر إليَّ نظرةً طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل، ثم قال بصوتٍ خافتٍ مضطرب: «أتعتقد أنَّ الله موجود؟»

فقلت: «نعم»؛ معالجًا نفسي على كتمان ما كاد يذهب بلبي من تنكر حاله وغرابة أمره.

فقال: «وتعتقد أنه عادل؟»

قلت: «نعم.»

قال: «وراحمٌ؟»

قلت: «نعم.»

فبسط يده إليَّ فعل الضارع المستصرخ، وقال: هل لك أن تحدثني أيها الصديق عن نزول الصواعق، وثورة البراكين، وطغيان البحور، وغرق السفن، وانتشار الأوباء، وفتك الأدواء، ونكبات الفقر والجوع، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بالآلام والأحزان؟ هل تعتقد أنَّ ذلك كله عدلٌ من الله ورحمة؟

قلت: «نعم، إنَّ الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا، فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها.»

قال: «إنَّ الله أكرم من أن يجعل الشر طريقًا إلى الخير، وألا يحسن إلا بعد أن يسلف الإساءة!»

قلت: «ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عاملٍ بعمله إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشر.»

قال: «إنه قد كتب على نفسه الرحمة.»

قلت: «نعم، إنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء.»

قال: «حدثني إذن عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسَه شرٌ ولم يتسرب إلى قلبه كيدٌ، ما لي أراه مفترشًا حجر أمه، وقد تولى الليل إلا أقله يتقلب على مثل شوك القتاد من الآلام التي تساوره، فيثب

تارةً ويضطرب أخرى، ويصرخ صرخاتٍ تستمطر المدامعٍ وتحول بين الجنوب ومضاجعها؟! وما لي أرى أمه باكيةً مولهةً مقرحة الجفون، منحلة الشعور موجعة القلب، تفزع لفزعاته وتصرخ لصرخاته، وقد اختبل عقلها واضطرب أمرها، وعظم يأسها وفنيت حيلتها، وقل مساعدها، وضعف ناصرها، فأنشأت تقلب وجهها في السماء ضارعةً إلى الله تعالى أن يأخذ بيدها، ويرحم نفسها برحمة ولدها، وبينا هي تنتظر صوت الإجابة يرن في أفق السماء، إذ بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها، وإذا به ينزع نزعًا مؤلمًا يطير باللب، ويذهب ببقية الصبر حتى تفيض نفسه، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى أصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة؟!»

قلت: «وما يدريك؟ لعل الله أراد به خيرًا فرحمه بالموت المعجل من حياةٍ علم أنه سيلقى فيها - كما تلقى أنت اليوم - عذابًا أليمًا وشقاء ممضًّا.»

فنالت هذه الكلمة من نفسه وانتفض لها، ثم قال: «أحسنت يا صديقي، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا وحقارة شأنها، فيتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم، ولم يكتب لهم سطرٌ واحد في ألواح المقادير. وبعد، فهل لك في سفرةٍ معي إلى صديقي الريفي نقضي عنده يومًا واحدًا ثم نعود، على أن تكون معي كما كان فتى موسى مع مولاه فلا تسألني عن شيءٍ حتى أحدث لك منه ذكرًا؟»

فوافيت رغبته، وقبلت شرطه، ثم قام وقمت، وبودِّي لو ملكت الدنيا بحذافيرها لحظة واحدة لأهبها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني على نكبته التي زعزعت نفسه وصهرت قلبه وملكت عليه لبه وكادت تعبث بيقينه. وما هي إلا ساعات قلائل حتى كنا في المنزل الذي أردناه، وقد أظل الليل بجناحيه، فقضينا واجب التحية والسلام، ثم خلا الصديق بصديقه خلوةً طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهما، ثم خرجا إليَّ، فجلسنا ساعة نتحدث، ثم قمنا إلى فراشنا، فنمت نومًا متقطعًا مملوءًا بالوساوس والهواجس. فما انتصف الليل حتى شعرت أنَّ صديقي يتحرك في فراشه، وينظر إليَّ ليعلم أنائم أنا أم مستيقظ، فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى حتى وصل إلى مشجب الملابس، فلبس أثوابه، ثم خرج من الغرفة، فخفق قلبي خفقة الرعب والفزع، وقلت: «لا بد أنَّ الرجل يريد بنفسه شرًّا، وإني أكون ألأم صديقٍ إنْ أنا تركته وشأنه!» فقمت على أثره أترسم خطواته، وأتتبع مخرجه ومدخله من مدرجةٍ إلى أخرى حتى بلغ ضاحية البلد، ثم استمر في شأنه حتى أطل على مقبرة واسعة قد جثمت قبورها في أرجائها جثوم الآبال في مرابعها، فوقف هنيهةً ثم مشى، فمشيت على أثره من حيث لا يشعر بمكاني منه، ثم أنشأ يتصفح القبور قبرًا قبرًا، فَخُيِّلَ لي أنه شبحٌ من أشباح الموتى يتنقل في أرجاء تلك المقبرة، فملكني من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا

إجلالي هذا الموقف المرهب، وشعوري أنني واقف على أبواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين عقولهم، وأطار طائر الاغتماض عن أجفانهم، ونغص عليهم ما يتمنون أن ينعموا به من مطاعمهم ومشاربهم، والتي يفد إليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي آبائهم وأمهاتهم، ليقدموهم بأنفسهم هدايا ثمينة إلى الدود، ثم يخلون بينهم وبينه يأكل لحومهم، ويمتص دماءهم، ويتخذ من أحداق عيونهم، ومباسم ثغورهم مراتع يرتع فيها كما يشاء بلا رقبى ولا حذر من حيث لا يملك مالك عن نفسه دفعًا، ولا يعرف إلى نجاةٍ سبيلًا.

مرت بخاطري تلك الذكرى، فملكت عليَّ نفسي حتى ذهلت عن موقفي، وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة في أمر صديقي، وفيما ساقه إلى هذا الموطن، وأين يذهب، وماذا يريد، وعمَّ يفتش؟ ثم استفقت، فرأيته جاثيًا فوق قبر من تلك القبور جثو العابد أمام معبده، فدلفت إليه حتى دنوت منه، فسمعته يقول:

اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بنعمتك، ولا خفرت ذمتك، ولا هتكت حرمةً من حرمك، ولا نزلت عند سخطك، ولا تبرمت بقضائك وقدرك، وأنك جازيتني فأحسنت جزائي، ووهبتني تلك الفتاة، فكانت كل ما أفدت من نعيم هذه الحياة وهنائها، ثم لم تلبث أن سلبتنيها وشيكًا أشوق ما كنت إليها وإلى قضاء ساعات العمر بجانبها، فاغفر لي جزعي وحزني، فكثيرٌ عليَّ ألا أجزع ولا أحزن.

لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات، وكأنما استحالت في نظري حقائق الأشياء، فأصبحتُ لا أرى في النجمة لألاءها، ولا في الزهرة جمالها، ولا في السماء صفاءها، ولا في البحر جلاله، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى ذهبت فذهب بذهابها كل شيء؟!

ذهبت بي الأيام كل مذهبٍ، وجرعتني من كئوس الشقاء جرعًا ما احتمل فمٌ قبل فمي مرارتها، فاغتفرت لها كل ذنوبها عندي؛ لأنها أسدت إليَّ صنيعةً كانت هي العزاء لي عن هموم الحياة وأحزانها، أما اليوم وقد صفرت منها يدي، وأقفر بفراقها ربعي، وحالت تلك الصفائح بيني وبينها، فلا سلوى ولا عزاء.

من لي بضربةٍ من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي فلا أعود أذكر أيام حياتها ومقعدها بجانبي، وابتسامها إليَّ واعتناقها إياي، وصوتها الرقيق وحديثها العذب، وصفاء عينيها، وجمال وجهها، وقيامها وقعودها، وجيئتها وذهوبها، وضحكها وبكاءها، ويقظتها ومنامها، وحزنها لفراقي وسرورها بلقائي؟! فإني كلما ذكرت ذلك شعرت كأن قلبي المجموع قد استحال إلى أفلاذٍ صغيرةٍ لا يلوي بعضها على بعضٍ.

اللهم إني أعلم أنَّ الدنيا ليست بدار قرارٍ، فلا أمل في البقاء فيها والركون إليها والاستمتاع بلذة الحياة فيها، وأنها الجسر الذي يمر به الأحياء إلى الدار الأخرى، وقد أحسنت إلى كل عبدٍ

من عبيدك برفيقٍ يكون عونًا له على قطع تلك الشقة، واختصصتني وحدي بالحرمان من ذلك المعين، فكيف أسير؟ وأين أذهب؟ ومن أين أبتدئ؟ وإلى أين أنتهي؟

اللهم إنك سلبتني كل شيءٍ حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم، ويطفئ بها المحزونون لوعات قلوبهم، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في قدر محكمة الغطاء، فامنن عليَّ بدمعةٍ واحدة أبرد بها غليلي، ولا أحسب أنك تمنعنيها، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك أن تعالج بها جراح المنكوبين.

اللهم لا ريبة في عدلك، ولا ظنة في كرمك، ولا اعتراض على قضائك وقدرك، ولا سخط في ابتلاك ومحنتك، ولكنك سلبتني عقلي بعدما سلبتني راحتي وهنائي وفتاتي، فخرج أمر نفسي من يدي، وأصبحت لا أعرف لي مذهبًا في هذه الأرض ولا مضطربًا.

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة فلا تمنعني حظي من الموت، فاستردَّ إليك عاريتك التي أعرتنيها، فقد عجزت عن احتمالها، وضقت ذرعًا بأمرها، إنك بعبادك رءوف رحيم.

وما أتم كلمته هذه حتى سقط على صفائح القبر مكبًّا على وجهه، فعلمت أنَّ المرجل قد انفجر، وأنَّ الله قد اجتبى هذا الرجل لنفسه، واختار له ما عنده. فصرخت صرخةً كانت ثانيةً لصرخةٍ أخرى بجانبي، فالتفت فإذا صديقه واقفٌ ورائي، فدنونا

منه معًا وحركناه فإذا هو ميت. فنقلناه إلى المنزل، وبتنا حول سريره نقضي حق صحبته تارةً بالدموع وأخرى بالخشوع، وهنالك قص عليَّ صديقه قصته، وكشف لي عن ذلك السر الذي كان يكتمه عني، فحدثني أنه قضى زمنًا طويلًا يشكو إليَّ ما يجد في نفسه من البغضاء لزوجته التي زوجه أبوه منها على الرغم منه، فخفت عليه التلف حزنًا وكمدًا، فزوجته منذ عشر سنين بأختي سرًّا من حيث لا يعلم أبوه؛ لأنه كان يخاف غضبه، ولا زوجته؛ لأنه كان يرحمها. فكان يزورنا في كل شهر مرة أو مرتين حتى ماتت تلك الأخت رحمة الله عليها وتركت له هذه الفتاة، فما زال يزورها كما كان يزور أمها، ويعزي بالثانية نفسه عن الأولى. فشغف بها شغفًا بلغ به حد الجنون، وكان كثيرًا ما يقول لي: «إني أشعر أن حياتينا حياةٌ واحدة، وأنَّا إما أن نعيش معًا، أو نموت معًا.» وكأنه ألهم بما سيكون، فحُمَّت الفتاةُ منذ ستة أيام، فما نشبت أن هصر الموت غصنها النضير، ولم تسلخ ثماني حجج، فنعيتها إليه بكتابٍ أرسلته له، فجاء وجئت معه، ثم كان بعدَ ذلك ما قدر الله أن يكون.»

دفنت صديقي بيدي، وألحدته بجانب تلك الصغيرة التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظةٍ واحدةٍ شوقًا إليها ووجدًا عليها. ثم عدت إلى بلدتي صفر اليد من ذلك الإنسان الذي كنت مالئًا منه يدي، والذي كنت أجلُّه وأعظمه حيًّا، ولا أزال أبكيه وأذكره ميتًا،

وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بموقف الصبر والجلد والوفاء والكرم درسًا أتعلمه، وأعلمه الناس حتى يجمع الله بيني وبينه:

كفى حزنًا بموتك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

الشعر

كتب إليَّ كاتبٌ يقول: «عرفناك قبل اليوم شاعرًا ما تكتب فقرةً، ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تنظم بيتًا، فلم لم تكتب في عهدك الأول، ولم تنظم في عهدك الثاني؟» كأنما ظن – عافاه الله – أني أكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس، أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادي، وهل الشعر إلا نُثارةٌ من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعرًا، وينثرها الكاتب إن شاء نثرًا، أو نغمةٌ من نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرةً من أفواه البلابل والحمائم، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر، أو عالمٌ من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين من عروضٍ وقافية، أو خافيتين من فِقَرٍ وأسجاع.

الكاتب الخيالي شاعرٌ بِلا قافيةً ولا بحر، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغٌ تعرض للكلام فيما يعرض له من شئونه وأطواره، لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته، ولولا أنَّ غريزةً في النفس أن يردد القائل ما يقول، ويتغنى بما يردد ترويحًا عن نفسه وتطريبًا لعاطفته، ما نظم ناظمٌ شعرًا ولا روى عروضيٌ بحرًا.

ما كان العربيُّ في مبدأ عهده ينظم الشعر، ولا يعرف ما قوافيه وأعاريضه، وما علله وزحافاته، ولكنه سمع أصوات النواعير، وحفيف أوراق الأشجار، وخرير الماء، وبكاء الحمائم، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة، ولذ له أن يبكي لبكائها وينشج

لنشيجها، وأن يكون صداها الحاكي لرناتها ونغماتها، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم منه إلا أنه ذلك الخيال الساري المتمثل في قريحته، المتردد بين شدقيه، ولا من أوزانه وضروبه إلا أنها صورةٌ من صوره، ولونٌ من ألوانه.

ذلك منتهى نظر العربي إلى الشعر، وذلك ما دعاه إلى أن يسمي النبي الذي بعثه الله إليه شاعرًا، وهو يعلم كما يعلم غيره من الناس أنه ما قصَّد في حياته قصيدة، ولا رجَّز أرجوزةً، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات أبلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس، وآخذه بالألباب، وأملكه للعواطف والوجدان، وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة والكنايات المستطرفة، وأمثال تيك مما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه إلا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري، فشبه له، فسمى ما سمعه شعرًا، وسمى الناطق به شاعرًا، وما هو بشاعرٍ ولا ساحر، ولا كاهن ولا مجنون.

ماً كل موزونٍ شعرًا، ولا كل ناظم شاعرًا، فالوزن ملكةٌ تعلق بالنفس من طول ترديد المنظوم، والتغني به مُقَطَّعًا تقطيعًا يوازن تفاعليه، فهو نغمةٌ موسيقيةٌ ولحن خاص من ألحان الغناء يتمثل في قول الملك الضليل:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

كما يتمثل في قول الخليل: «فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن.» ويتراءى في أوتار الحلق الناطق، كما يتراءى في أوتار العود الصامت.

أما الشعر فأمرٌ وراء الأنغام والأوزان، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسناء، أو الوشي في ثوب الديباج المعلَّم، فكما أنَّ الغانية لا يحزنها عطل جيدها، والديباج لا يزري به أنه غير معلَّم، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون.

ذلكَ هو الفرق بين الشعر والنظم، وهأنتذا ترى أنْ لا صلة بينهما إلا تلك الصلة الاصطلاحية التي لا سبب لها إلا اعتياد الناس أنهم ينظمون ما يشعرون. وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما، وعمت على كثيرٍ من الناس أمرهما، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء، وألقت عليهم جميعًا رداء واحدًا لا يستطاع معه التمييز بينهما إلا للقليل من الناقدين المستبصرين، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيتٍ فلا نجد بيتًا، ونتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة، وأصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئًا غير شاعر؛ لأنه لا يوجد في الناس شخصٌ واحد يعجزه تصور تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين.

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وافتنُّوا في ذلك افتنانًا بَعُد به عن مكانه، وعندي أنَّ أفضل تعريف له أنه «تصويرٌ ناطقٌ»؛ لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير، وميزان جودته ما يترك في النفس من الأثر، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة خياله ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل

دون قلبه، وتصوير ما في نفسه للسامع تصويرًا يكاد يراه بعينه ويلمسه ببنانه، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه، يبكي لبكائه ويضحك لضحكه، ويغضب لغضبه ويطرب لطربه، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها، وشموسها وأقمارها، ورياضها وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وباغمها، وناطقها وصامتها، من حيث لا ينقل إلى ذلك قدمًا، ولا يلاقي في سبيله نَصَبًا.

فإن سمع قول القائل:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حُنُوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زُلالا ... ألذ من المُدامة للنديم
يصد الشمس أنَّى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروح حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

خيل إليه أنه يخطر في ذلك الروض البليل، بين أنواره وأزهاره، خطران النسيم بين ظلاله وأشجاره، وأنه يرى بعينه أولئك العذارى السانحات، وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء، فتولَّهن وفزعن إلى جوانب عقودهنَّ يلمسنها بأطراف بنانهنَّ يحسبن أن قد وهت، فانتثرت جواهرها في ذلك الروض الأريض.

وإن سمع قول الآخر:

ودار ندامى عطَّلوها وأدلجوا ... بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارس
حبست بها صحبي وجمعت شملهم ... وإني على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يومًا ويومًا وثالثًا ... ويومًا له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجديةٍ ... حَبَتْها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها ... مهًا تدريها بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

تمثل له كأنه مر في ضاحيةٍ من ضواحي بغداد بدارٍ موحشة، فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون ويقرعون الكئوس بأمثالها، فاقترب منها وأطل منَ خَصَاصِ بابها، فرأى أولئك القوم مجتمعين حول دَنٍّ من الخمر قد تكاملت سِنُّهُ، وشيَّب الدهر فَوْدَيْه ففصدوه، فسال دمه الأحمر في كئوسٍ من الذهب منقوشةٍ نقوشًا فارسية، قد استقرت في قرارتها صورة كسرى فارس، ودارت في باطنها صور فرسانه متنكبي قسيهم، كأنما يطاردون بقر الوحش أمامهم، ورآهم يملئون الكئوس إلى ما يوازي أعناق أولئك الفرسان، ثم يمزجونها بالماء إلى ما يغطي رءوسهم، فتسلل من مكانه مغتبطًا بمجمعهم، وبما هيئ لهم من الهناء والنعمة فيه، ثم مرَّ بتلك الدار بعد أيام، فرآها مقفرةً من أهلها لا تسمع بها نغمة ولا نأمة، فدخلها، فلم يرِ فيها إلا أعواد ريحان قد يبس أكثرها مبعثرةً في جوانبها، وخطوطًا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوها ورواحها بين

أولئك الندماء، فانصرف حزينًا مكتئبًا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها، فيردد قول القائل:

رُبَّ ركـبٍ قـد أناخـوا حولنـا ... يشـربون الخمـر بالمـاء الـزلال

عصـف الدهـر بهـم فانقرضـوا ... وكـذاك الدهـر حـالًا بعـد حـال

وإن سمع قول الآخر:

ويـومٍ كتنُّـور الإمـاء سـجرنه ... وأوقـدن فيـه الجـزل حتـى تضرما

رميـت بنفسـي في أجيـج سمومـه ... وبالعيـس حتـى بَـضَّ مِنْخَرُهـا دما

شعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهب في وجهه، فيشيح عنه فرارًا من لفحاته، ويكاد يبكي رحمةً لذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله، وحالت بينه وبين نفسه، فلا هو بصابرٍ إنْ رام صبرًا، ولا بناجٍ إن أراد نجاءً.

وإن سمع قول الآخر:

وارحمتـا للغريب في البلد النا ... زح مـــاذا بـنـفـسـه صـنـعـا!

فـارق أحبابـه فمـا انتفعـوا ... بالعيـش مـن بعـده ولا انتفعـا

هملت عيناه وجدًا على ذلك الغريب الحائر، وتمنى أنْ لو رآه في بعض مذاهبه وعطف عليه وآنس وحشته، وخفض لوعته، ثم أخذ بيده فأنزله من نفسه منزلًا كريمًا، وأبدله أهلًا بأهلٍ وجيرانًا بجيران.

وإن سمع قول الآخر:

وإنَّ الذي بيني وبين بني أبي　　وبين بني عمي لمختلف جدًّا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم　　وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم　　وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرًا بنحسٍ تمر بي　　زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم　　وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالي إن تتابع لي غنًى　　وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام ثاويًا　　وما شيمةٌ لي غيرها تشبه العبدا

أكبر تلك المكرمة العظيمة وأجلها، ونظر إليها في علياء سمائها كما ينظر الفلكي إلى كوكبه، وشعر كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى جوانب نفسه، فأضاءها.

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ! فلطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيدُ البرامكةَ عندما دسَّ له أعداؤهم ذاك المغني الذي غناه هذا الصوت:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد　　وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرةً واحدةً　　إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل عليه سديف مولاه، وأغراه في قوله:

لا تقيلن عبد شمسٍ عثارًا　　واقطعن كل رقلةٍ وغراس

أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم ... وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي ... قربهم من نمارقٍ وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب على الحُطَيْئَةِ وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ ... حمر الحواصل لا ماءٌ ولا شجر؟
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمةٍ ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي ﷺ قول قتيلة بنت الحارث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحارث على رحمه منه، واتصال نسبه به:

أمحمد يا خير صنو كريمةٍ ... في قومها والفحل فحلٌ معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة ... وأحقهم إن كان عتقٌ يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق!

فبكى وقال وهو من لا ظنة في عدله، ولا ريبة في حكمه: «لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته.»

لا مؤثر في نفس الإنسان غير الشعر، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته إلا للشعر، وللشعر الفضل الأول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ من الكمال. ولقد أحب الإنسان

الشعر ناطقًا وصامتًا؛ أما الناطق فقد عرفته، وأما الصامت فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال شعرٌ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصور خواطر القلوب ووجداناتها، فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق وعاطفة الحماسة في نفس الجندي شعرٌ، وهدير الأمواج شعرٌ؛ لأنه يمثل عظمة الجبارين، وظلام الليل شعرٌ؛ لأنه يطلق دموع الباكين، وحفيف أوراق الأشجار شعر؛ لأنه يمثل المناجاة في مواقف العشاق، وبكاء الحمائم شعر؛ لأنه يمثل فجعة البين ولوعه الفراق.

تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرةً، وفم الطبيعة مرةً أخرى، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض من السعادة والهناء حتى أحببناها وولعنا بها وحرصنا عليها، وأعددنا العدد للبقاء فيها والسكون إليها، فكتبنا ودونا، وألفنا واخترعنا، وتعلمنا فعلمنا، وبنينا فشيدنا، وغرسنا فجنينا، وعملنا فربحنا، واجتهدنا فأثرينا، وأملنا فسعينا، وسعينا فبلغنا، فكأن الشعر سر هذه الحياة وعلة هذا الوجود، لا تطير إلينا الحقائق إلا على جناحيه، ولا يطيب لنا العيش إلا في جواره. فلنمجد الشعراء كل التمجيد، ولنكبرهم كل الإكبار؛ فهم مشارق شموس الحكمة، وأفلاك كواكب العلم والفضل، وهم الينابيع الصافية التي يترقرق ماؤها ثم يتسرب إلى الأفئدة والقلوب فيملؤها سعادةً وهناءً.

الشهيدتان

لم تغتمض عيناي ليلة أمس؛ لأنني بت أسمع في الدار اللاصقة لبيتي أنين امرأةٍ متوجعةٍ تعالج همًّا ثقيلًا، وتشكو مرضًا أليمًا، وكان يُخيل إليَّ أني لا أسمع بجانبها معللًا يعللها ولا جليسًا يتوجع لها، فلما أصبح الصباح ذهبت إليها، فإذا قاعةٌ صغيرةٌ مظلمةٌ لا تكاد تشتمل على أكثر من سريرٍ بالٍ يتراءى فوقه شبح ماثلٌ من أشباح الموتى، فترفقت في مشيتي حتى دنوت منها، وكأنها شعرت بمكاني، فحركت شفتيها تطلب جرعة ماءٍ، فأسعفتها بها فاستفاقت قليلًا، ثم تقدمت نحوها أسائلها عن خطبها، فأنشأت تقص عليَّ قصتها بصوتٍ خافتٍ متقطعٍ كنت أكاد أنتزعه منها انتزاعًا، وتقول:

زوجني أبي منذ سبع سنين من رجلٍ مزواج مطلاق، لا يكاد يصبر على امرأةٍ واحدة عامًا واحدًا. ولو كان لفتاةٍ أن تستبد بأمرها من دون أوليائها لأحسنت الاختيار لنفسي. بل لو لم يكن في الأمر إلا أن أتبتل أو أصير إلى هذا المصير لكان لي في الرهبانية رأيٌ غير ما يراه فيها النساء. ولكنني عجزت، فأذعنت وزففت إليه، فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه عنده وأكرمهن عليه، فكان يريبني من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الأسد، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر القاتل يوم القصاص.

فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب، فتزوج فبنى، وأني أصبحت في المنزل وحيدةً لا مؤنس لي إلا طفلتي الصغيرة. فجزعت عند الصدمة الأولى، ثم نزلت على حكم القضاء الذي لا أملك رده، ولا أعرف وجه الحيلة فيه، واحتملت طفلتي إلى بيت أبي، فوجدته مريضًا مشرفًا، فبكى رحمةً بي واستغفرني من ذنبه إليَّ فغفرته له. وما هي إلا أيام قلائل، حتى مضى لسبيله مفجوعًا برزئي ورِزئه، فعلمت أنَّ الدهر قد سجل عليَّ في جريدة الشقاء أيامًا طوالًا لا أعلم متى يكون انقضاؤها، ولا أدري ما الله صانعٌ فيها! فظللت أستكتب الناس الكتب إلى ذلك الرجل أسأله القوت فأستعين به على تربية طفلته، أو التسريح عسى أن يبدلني الله خيرًا منه زكاةً وأقرب رحمًا، فضن بالأولى، واستعظم الأخرى، فلمِ أرَ لي سبيلًا غير سبيل العمل. فلبثت بضع سنين ساهرةً الليل قائمةً النهار أستقطر الرزق من سم الخياط، فلا أكاد أبلغ منه الكفاف حتى بلغ مني الجهد. فدهيت بمعضلةٍ من الأدواء خرجت لها عن كل ما أملك من حيلة وذخيرة وكسوة وآنية، وأصبحت لا أملك درهمًا أبتاع به قارورة الدواء، ولا أجد مزقةً أمسك بها قوائم هذا السرير المضطرب. وما قنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالداهية الدهياء التي يصغر في جانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته؛ فقد كتبتُ إلى والد الفتاة منذ شهرٍ أصف لهَ حالتي، وأفضي إليه بذات نفسي، وأسأله أن يمدني وابنَتي بقليلٍ من القوت نمسك به تلك الصبابة التي أبقتها خطوب الأيام ورزاياها من أعظمنا وجلودنا.

ولبثت أترقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة، فإني لجالسةٌ في هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه إليَّ وسيئاته عندي، فلا أفرغ من عقد إلا إلى عقد، ولا أنتهي إلا حيث أبتدئ، وقد جلست طفلتي بين يديَّ أتطلع إلى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح في ظلماته إلى نجمة القطب، إذ هجم عليَّ ذلك الظالم الجبار فاختطف ابنتي من بين يديَّ من حيث لا أملك دفعًا لما نابني، ولا أجد ما أذود به عن نفسي إلا زفراتٍ لا يسمعها سامعٌ، وعبراتٍ لا يرحمها راحمٌ. فشعرت كأن أسهم الدهر التي كانت تروغ هاهنا وهاهنا قد أصابت في هذه المرة المقتل، فبت ليلتي تلك كما يجب أن تبيت امرأة بائسةٌ معدمةٌ فجعها الدهر في نفسها بعد أن فجعها في زوجها وأبيها وولدها، فأصبحت لا تجد أمامها يدًا تنبسط إليها ولا عينًا تبكي عليها. وقد مر بي بعد ذلك عشرون ليلة ونيفًا لا يرقأ لي دمعٌ، ولا يهدأ بي مضجع، حتى إذا اختلست من يد الظلام نعسةً تراءت لي الفتاة كأنها في فراشها مريضةٌ تهتف باسمي، وكأن أباها يوسعها ضربًا وتعذيبًا، وكأنني أحاول أن أستنقذها فلا أجد إليها سبيلًا. وهأنذا أشعر أنَّ سحابة الموت السوداء تغشي على بصري، وأنني مفارقةٌ هذا العالم قبل أن أنظر إلى فتاتي نظرةً أتزودها في سفري إلى تلك الدار.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى جرضت بريقها وحشرجت أنفاسها، وشطر بصرها، فجثوت عند سريرها أدعو لها

الله أنْ يعينها على أمرها ويمدها برحمته وإحسانه. فإني لكذلك – وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغراق العابد في هيكله – إذ رأيت في خلال الدموع التي كانت تزدحم في عيني شبحًا منتصبًا عند باب الغرفة، فتأملته فإذا رجل يحمل بين يديه فتاةً صغيرة، فتقدمت إليه، فرأيته خاشعًا مستكينًا ينظر إلى تلك التي يحملها نظرات الوجد والرحمة، ورأيت الفتاة كأنها خرقةٌ باليةٌ ملقاةٌ لا يتحرك لها عضو، ولا ينبض منها عرقٌ، فقلت: «من أنت؟ وماذا تريد؟» قال: «أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة.» قلت: «لعلك جئت تستغفر هذه البائسة المسكينة من ذنبك إليها في التفريق بينها وبين ابنتها!» قال: «يا سيدي ما زالت الفتاة منذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءً مرًّا، وتهتف باسمها في يقظتها ونومها، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طبٌّ، ولا ينجح فيها دواء. فلما رأيت أنها وصلت إلى الحالة التي تراها جئت بها إلى أمها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاء من دائها.» قلت: «ذلك موكولٌ إلى القضاء، ولا يعلم الغيب إلا الله.» ثم تقدمت نحو الفتاة، فرأيتها تجود بنفسها، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعي أمها، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها، والأم بفتاتها حتى فاضت نفساهما معًا، كأنما كانتا من الردى على ميعادٍ.

الآن، وقد عدت من دفن الشهيدتين وجلست لكتابة هذه السطور، أشعر أني لا أكاد أمسك قلمي من الاضطراب، ولا مدمعي

عن الانفجار حزنًا على تلك البائسة المسكينة، لا بل حزنًا على جميع البائسات من النساء اللواتي يقتلهن الرجال كل يومٍ صبرًا، من حيث لا يجدن راحمًا يأخذ بأيديهن، ولا ثائرًا يثأر لهَن.

الدعاء

وهو ملخص قصيدة لفيكتور هوجو (بتصرف)

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد نزل ستار الليل، ودب الشفق الأحمر في حاشية الأفق، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب، وأجرى البدر المنير لِيقَتَه البيضاء على صفحة النهر، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار غبار النهار.

قومي يا بنية إلى الصلاة، فقد مات النهار، وماتت بموته الآلام والأحزان، والأحقاد والأضغان، والمظالم والمآثم، ولم يبقَ من تلك الأعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه إلى أبواب السماء.

قومي يابنية إلى الصلاة، فقد أوى الناس إلى منازلهم، والطيور إلى وكناتها، والوحش إلى أوجرته، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدها، ولم يبقَ من أصواتها إلا أنين الراحة المتمثل في رنين هذه المركبة المقبلة في جوف الليل، وجؤار هذه السائمة العائدة من حقولها، وهدير تلك الرياح الضاربة في ذوائب الأشجار ورءوس الأبراج.

قومي يا بنيةِ إلى الصلاة، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الأطفال حول أَسرَّتهم حفاة عراة الرءوس شواخص الأبصار، يطلبون الرحمة من الله تعالى لآبائهم وأمهاتهم وللناس أجمعين، فترن أصواتهم في الملأ الأعلى رنين نغمات الموسيقى في أجواف

الفضاء، فيرددها الملائكة طائرين بها إلى عرش الرحمن، فإذا فرغوا من دعائهم، وقضوا حق الله عندهم وحقهم عند أنفسهم، ذهبوا إلى مضاجعهم، وناموا نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول ثناياهم الباسمة، كما تتطاير أسراب النحل حول أحواض الأزهار.

قومي يا بنية إلى الصلاة واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الأولى من عالمها، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريرًا قبل سريرك، ومن أحشائها مهادك قبل مهادك، والتي قدم لها الدهر كأسي شقائه ونعيمه، فشربت الأولى وآثرتك بالأخرى.

اطلبي لها الرحمة، فإنها كانت بيضاء القلب صافية النفس تحب من لا يحبها وترحم من لا يرحمها، وتبتسم ابتسامة عذبةً رائقة لا تمازجها ريبةٌ، وتمد يدها إلى اجتناء كل ثمرة إلا ثمرة الشجرة المنهي عنها. وكانت تقف أمام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المتريث المرتاب الذي يتهم سمعه وبصره، وتنظر إليه نظر الحكيم العاقل الذي يعلم أنَّ السعادة الكاذبة أمرُّ مذاقًا في الأفواه من الشقاء الصادق، وأنَّ هؤلاء الذين يضحكون سرورًا بهذا الصور الخيالية لا يعلمون أنهم يبكون من حيث لا يشعرون، وأنَّ أولئك الجالسين حول مائدة الشهوات إنما يقامرون بأنفسهم، ولا بد أنهم خاسرون، فتغض بصرها، وتشيح بوجهها، وتعود أدراجها بقلب غير مخدوعٍ، وفؤاد غير مصدوع.

اذكري يا بنية أن تطلبي الرحمة لأبيك، كما تطلبينها لأمك، فهو أحوج إليها منها؛ لأن الخطايا قد أثقلت ظهره، فأصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه إلى السماء، وغلَّت يده، فلا يستطيع أن يمدها إلى الله بالدعاء.

إنني أشعر يا بنية حينما أسمع دعاءك لي كأنني أسمع صوت انفصام القيود عن قدمي، وكأن سحابةً سوداء تنقشع عن قلبي قليلًا قليلًا، وكأن جناحي المهيض قد نبت له ريشٌ ناعم جميلٌ أحاول أن أطير به إلى أعالي السماء.

اطلبي الرحمة لجميع الآباء العائدين إلى منازلهم تحت ستار الظلام بدموعٍ منهلةٍ وقلوبٍ واجمة بعد أن سايروا الشمس من مشرقها إلى مغربها، فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم حينما يعودون إليهم.

اطلبي الرحمة لجميع الأمهات الجالسات حول أسرَّة أبنائهن المرضى، وقد خفقت قلوبهن، وحارت أبصارهن مخافةَ أن يذقن مرارة الثكل، والثكل كثيرٌ على قلوب الأمهات.

اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجيع بطنه ويشبع صندوقه، والأحمق الذي يبتسم للمعان الحرير في صدره، والذهب في أصابعه، والقاضي الذي يبرئ القاتل المتعمد، ويدين السارق المضطر، والملك الذي يشعل نار الحرب في أمته ليطفئ نار غضبه، والظالم الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوءٍ يقضيها خارج بيته، ويحاسب زوجته

على ابتسامة كرم تبسمها لغيره، وسائر البؤساء الذين لا يشعرون ببؤسهم، والأشقياء الذين يظنون أنهم سعداء.

اطلبي الرحمة لأولئك الذين عمروا الأرض، وبنوا دورها، وشادوا قصورها، وزخرفوا سهولها وجبالها وأغوارها وأنجادها، فجازتهم سوءًا بما عملوا، وابتلعتهم في جوفها، فأصبحوا في تلك الحفرة المظلمة المخيفة التي تختلط فيها الرءوس بالأقدام، والقوادم بالخوافي، والنعال بالتيجان، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث انطواء اللجج المتراكبة في البحر العميق، يتألمون ولا ينطقون، ويستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم أو يلبي دعاءهم.

اطلبي الرحمة لهم، فإن الدعاء الخالص يستحيل في أنظارهم إلى روضة من رياض الجنان تنبت فوق أجداثهم، فتمد إليهم ظلالها، وتنثر بينهم أوراقها وأزهارها، واركعي فوق التربة التي يئنون تحتها، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم، وتطفئ جذوة الندم المتوقدة في أحشائهم، إنهم إلى الرحمة محتاجون، وإلى الله راغبون.

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار، والعصاة والطائعين، والمؤمنين والملحدين، وكل دارجةٍ في الأرض، وكل سانحةٍ في السماء، ولا تيأسي أن يستجيب الله دعاءك، فلكل بدايةٍ نهايةٌ، ولكل سائلةٍ قرارٌ، فكما أنَّ النهر يتسرب إلى البحر، والطائر يقع على الغصن، والشمس تجري لمستقرها، والنفس تصعد إلى عالمها، كذلك أبواب السماء مفتحةٌ لخالص الدعاء.

ليلة في التمثيل

من أراد أن يعرف الأخلاق العامة المصرية كما هي فَلْيَزُرْ دار التمثيل العربي؛ فإنه يرى هنالك ما تفرق من أخلاق هذه الأمة وغرائزها وميولها وأهوائها مجتمعًا في بقعةٍ واحدة.

زرت تلك الدار ليلة أمس، وكثيرًا ما أزورها؛ لأني أحب التمثيل حبًّا يكاد يساوي حبي للشعر والموسيقى والجمال، فبدا لي أن أكون في تلك الليلة فيلسوفًا أكثر مني متفرجًا؛ أي أن أكون متفرجًا على المتفرجين، ومطلعًا على المطلعين، فكانوا جميعًا يشاهدون ملعبًا واحدًا، وكنت أشاهد وحدي ألف ملعب لا يقل كل واحد منها عن ملعبهم غرابة وإبداعًا.

كان الزحام في هذه الليلة شديدًا؛ لأن الأدباء يعجبهم من رواية روميو وجولييت ذلك الأسلوب الفصيح، والترتيب البديع الذي انفرد به المرحوم الشيخ نجيب الحداد من بين كتاب الروايات ومترجميها، ولأن العاشقين يهمهم منها أن يروا فيها مواقف العناء والشقاء التي وقفها روميو وجولييت، ليتخذوا منها لأنفسهم تعزيةً عما يلاقونه في أمثال هذه المواقف من عناءٍ وشقاءٍ، ولأن النساء يطربهن منها منظر جولييت وهي قتيلة مخضبة بدمها، ليجدن السبيل إلى الشماتة بها، والسخرية بضعف حيلتها، وعجزها الذي كان سببًا في حرمانها من سعادتها وحياتها، فكأنهن يقلن لها: «لو

كنا مكانك أيتها الفتاة الحمقاء، لما بذلنا حياتنا في سبيل رجلٍ لا يفوتنا حظنا من غيره إن فاتنا حظنا منه.»

وبالجملة، فقد كان أصحاب الأعراض المختلفة في هذه الرواية كثيرين جدًّا، وكانوا إذا اشتركوا في هتافٍ أو تصفيقٍ دوى لهم في أرجاء القاعة صوتٌ يصدع الرءوس، ويؤثر في أعصابٍ السمع تأثيرًا سيئًا، فكنت إذا شرع المغني في نشيدٍ وترقب الناس النغمة الأخيرة بتشوق وتلهف، ترقبتها بخوفٍ وجزع؛ لأني لا أحب أن تكون آخر نغمة أسمعها في حياتي.

رأيت فيما رأيت في ذلك المعرض العام أنَّ عامة المصريين يحبون التصفيق حبًّا جمًّا ويتهالكون وجدًا عليه.

رأيت من كان يصفق حتى تحمر كفاه، وتكادا تبضان دمًا، ومن كان يضرب الأرض بقدميه حتى يكاد يجمد الدم في عروقهما، رأيت ملكة التقليد آخذةً من نفوسهم مأخذها؛ لأنهم ما كانوا يصفقون في مواقف الاستحسان جميعًا، بل كان يبتدئ أحدهم فيقلده الجالسون حوله، ثم يسري التصفيق تدريجيًّا بين الجميع. ولقد رأيت من استغرق في الضحك حتى كاد يسقط عن كرسيه، ثم سمعته يسأل بعد ذلك جليسه: «مم تضحكون؟»

ولقد كنت أحسب أنهم لا يصفقون إلا في مواطن الاستحسان كما هو الشأن في ذلك، فإذا هم يصفقون لكل مشهدٍ من المشاهد المؤثرة – مفرحًا كان أو محزنًا، هزلًا أو جدًّا – فصفقوا لمنظر جولييت وهي

تتجرع السم، وصفقوا لمنظر روميو وهو يتحرق وجدًا حينما فاجأه الخبر بموتها.

أما النساء فملأن خدورهن ضحكًا عندما سقط روميو قتيلًا، ولا أعلم لذلك سببًا إلا أن تكون عداوة الجنسية، وحب الانتقام.

أما آداب الاستماع، فلا تسل عنها؛ لأنك لا ترى في جوابي ما يسرك، وأي منظر يروقك من مجتمعٍ ما اجتمع في مثل هذا المكان إلا للاستماع، ثم لا ترى بينه إلا مصفقًا أو هاتفًا أو راكضًا أو ضاحكًا أو صارخًا أو مصفرًا أو ماضغًا أو متكلمًا، وربما كان ذلك هينًا لو وقع بين الفصل والفصل، أو المنظر والمنظر، أو الجملة والجملة، ولكنه يقع مطردًا حيثما اتفق وكيفما بدا!

وبعد... فقد استنتجت من منظر ذلك المعرض العام أنَّ للجمهور المصري ثلاثة أخلاقٍ هي ألزم من ظله وألصق به من نفسه: يحب التقليد، ويحب الهزل، ولا يستطيع أن يصبر عن إظهار ما تتأثر به نفسه من حزنٍ وسرورٍ لحظة واحدة.

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسدًا أحدًا على نعمة فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره، ولولا أنَّ للأوهام سلطانًا على النفوس لما سجد الفقراء بين أيدي الأغنياء ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أربابًا من دون الله.

أنا لا أغبط الغني على غناه إلا في موطن واحدٍ من مواطنه، فأغبطه إن رأيته يشبع الجائع، ويواسي الفقير، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون، ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى.

أرثي له إن رأيته يتربص بالفقير وقوع الضائقة به ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان، فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل. وأرثي له إن رأيته يعتقد أنَّ المال هو منتهى الكمال الإنساني، فيرغب عن الفضائل والكمالات؛ لأنه يظن أنه قد كفي مئونة السعي إليها. وأرثي له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء، وطاول بعنقه السماء، وسلم بإيماء الطرف، وإشارة الكف، ومشى في طريقه يخزر عينيه خزرًا، ليرى هل سجد الناس لمشيته، أو صعقوا من هيبته! وأرحمه الرحمة كلها إن عاش شحيحًا مقترًا على نفسه وعياله، بغيضًا إلى قومه وأهله، ينقمون عليه حياته، ويستبطئون أجله.

أما الفقير فهو عندي أسعد الناس عيشًا، وأروحهم بالًا، إلا إذا كان جاهلًا ضعيفًا مخدوعًا يملك الوهم عليه مشاعره، فيظن أنَّ الغني أسعد منه حظًّا، وأرغد عيشًا، وأثلج صدرًا، فيحسده على تلك السعادة التي يزعمها له، فيجلس في كِسر بيته جِلسة الكئيب المحزون، يصعد الزفرة فالزفرة، ويرسل الدمعة إثر الدمعة، ولولا جهله وضعف قلبه لعلم أنْ رُبَّ صاحب قصرٍ باذخ يتمنى كوخ الفقير وعيشه، ويرى أنَّ ذلك السراج من الزيتِ أسطع ذبالًا وأكثر لألاءً من أنوار الشموع وباقات الكهرباء التي تأتلق بين يديه، وأنَّ تلك الحشية من الأديم أو الوبر أنعم ملمسًا وألين مضجعًا من وسائد الحرير ونضائد الديباج.

لقد بلغ التسفل وضعف النفس بكثير من الناس أنهم يحفلون بشأن الأغنياء لأنهم أغنياء، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبلُّ غلَّةً أو يسيغ غصةً. وليت شعري إن كان لا بدَّ لهم من إجلال المال وإعظامه لذاته، فما لهم لا يقبلون أيدي الصيارفة، ولا ينهضون إجلالًا للكلاب المطوقة أعناقها بأطواق الذهب – وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء؟

لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعامَلوا به لوجدوا أنفسهم في وحشةٍ من أنفسهم وأموالهم، ولشعروا أن بدرات الذهب أساود ملتفة على أرجلهم، وأغلالٌ آخذةٌ بأعناقهم، ولعلموا أن الشرف في كمال الأدب لا في رنين الذهب، وفي جلائل الأعمال لا في أحمال المال.

فليعظم الناس الكرماء، وليحتقروا الأغنياء، وليعلموا أن الشرف شيءٌ وراء الغني والفقر، والسعادة أمرٌ وراء الكوخ والقصر.

على سرير الموت

مررت منذ سنواتٍ على باب منزلٍ في أحد أزقة القاهرة، فرأيت حوله مجتمعًا حافلًا تصطك فيه الأقدام بالأقدام، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس، وقد تخلله قومٌ من رجال الشرطة، وسمعت قائلًا يقول: «قبح الله الانتحار!» وآخر يقول: «أحسبه شابًّا غريبًا لأني لم أرَ عينًا تدمع عليه.» فعرفت مجمل القصة، وأنَّ في هذا المنزل شابًا غريبًا منتحرًا، وأنَّ هذا الحادث سبب هذا الاجتماع.

لم أقنع بالإجمال، فأحببت معرفة التفصيل، فحاولت الدخول إلى المنزل فما استطعت، فتريثت حتى جاء ضابطٌ أعرفه من ضباط البوليس، فدخلت معه. وهنالك رأيت على سرير الموت شابًّا في نحو العشرين من عمره، رقيق الجسم، أصفر اللون، لم تستطع يد الموت أن تمحو كل آثار جماله، بل بقيت منه بعد الموت بقيةٌ كتلك البقية من الرائحة العطرة التي يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة.

اهتم الضابط بملابسه، لعله يجد فيها ما يدل عليه أو على سبب انتحاره، واهتم الطبيب بالميت ليعرف علة موته، وجلست بجانبه جِلسة الكئيب المحزون أفكر في مصيبته، وأندب شبابه وجماله، فلمحت حول السرير أوراقًا منثورة، فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب.

قرر الطبيب أنه منتحر بشرب سائلٍ سامٍّ، وقرر الضابط نقل جثته إلى المستشفى، فنُقلت وانفض الجمعُ المزدحم، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئًا.

خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق تناول كأس الحب بيده، فارتشف منها الجرعة الأولى فوجدها حلوة المذاق، فاستمر في شأنه يشرب ولا يرفع الكأس عن فمه، فلم يشعر بالمرارة المتجددة في الجرعات الأخرى حتى أتى على آخر جرعة، فإذا هي السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته.

قرأت تلك المفكرات فبكيت بكاءً رحمت نفسي منه، ثم طويتها وألقيت بها في بطون الأعوام وبين ودائع الأيام.

وبينا أنا أقلب أوراقي ليلة أمس إذ عثرت بها في ملفٍّ صغير قد اصفر لونه لتقادم العهد عليه كما يصفر الكفن حول الجثة البالية، فشعرت برعدةٍ تتمشى في أعضائي حينما تخليت أنها في هذا السفط شبح كاتبها في ذلك القبر.

ثم عدت إلى نفسي، فنشرتها للمرة الثانية، وأعدت قراءتها، فرأيت قلب العشق مرسومًا فيها رسمًا صحيحًا في حالي سعادته وشقائه، وهأنذا أنشرها في الناس لتكون عبرةً يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل، سبيل الحب القاتل.

١

رأيتها فأحببتها، وما كنت أعرف الحب من قبلها.

كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شَمسٌ ساطعةٌ منيرة، لها من الشمس نورها وجمالها، وليس لها منها حرارتها ولذعاتها.

كنت أشعر كأن قلبي في صحراء هذه الحياة وحيدٌ موحشٌ لا يعرف القلوب، أو يعرفها ثم ينكرها. فلما أحببت رأيت بجانب قلبي قلبًا لاصقًا به يخفق لخفقانه ويتحرك بحركته، فكنت أجد بين جوانحي من السرور والهناء واللذة والاغتباط ما لو قسم على القلوب جميعها ما خالطها حزنٌ ولا مسها ألم.

كنت أسمع باسم السعادة ولا أفهم معناها، غير أني كنت أسمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة، والفضة والذهب، والسلطة والجاه، والشهرة والصيت، فلما أحببت اعتقدت ألا سعادة غير الحب، وأيقنت أنَّ الناس جميعًا يطلبون سعادة الأجسام لا سعادة الأرواح، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحرير والديباج، وباطنه مسرح الدود، ومرتع الهوام والحشرات.

٢

أحببتها قبل أن أعرفها، أو أعرف شأنًا من شئونها سوى أنها تحبني، فكأني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحتني قلبها، وهو ثمنٌ قليلٌ في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت أحدث نفسي بها، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأماني، ولا سوانح الأحلام. عشت دهرًا طويلًا بين أقوامٍ لا يعنيهم أمري، ولا يهمهم

شأني، وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشرٌ، فسمعت من يسألني: كيف حالك؟ ومن يقول لي: ما أشد جزعي لمصابك! ومن يتباكى رحمةً بي وحنانًا عليَّ، ولكن لم أرَ بجانبي عينًا تدمع ولا قلبًا يخفق.

رأيت من يحب جمالي كما يحب تمثالًا متقن الصنع، ورأيت من يحب مالي كما يحبه في كيسه أو خزانته، ورأيت من يعجب بحديثي كما يعجب بروايةٍ بديعةٍ، ولكن لم أرَ في حياتي من يحبني.

أما اليوم، فقد وجدت بجانبي القلب الذي يخفق لأجلي، والعين التي تدمع عليَّ، والنفس التي تحبني لا لشيءٍ سواي، فقليلٌ لها مني أن أمنحها حياتي، فكيف أبخل عليها بقلبي؟

٣

خلوت بها للمرة الأولى، فحدثتني نفسي أن أمد يدي إلى يدها، فأضعها على صدري، لأطفئ بها غلتي، فما لمستها حتى نظرت إليَّ نظرة العاتب اللائم، وقالت: كن رجلًا في حبك، واترك الطفولة لغيرك، إن كنت تحبني لنفسي، فهأنتذا قد ملكتها عليَّ، وأحرزتها دوني حتى لا أعرف لي فيها مأربًا، وإن كنت تحبني لهذه الصورة الجثمانية، فما أضعف همتك، وما أصغر نفسك!

أتذرف دمعك، وتسهر ليلك، وتذيب حبة قلبك من أجل عظمةٍ تلمسها، أو جلدةٍ تلثمها؟!

أنت شريفٌ في نفسك، فكن شريفًا في حبك، واعلم أني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد، حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي، وتمنيت أن لو عجل إليَّ أجلي قبل أن يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني، ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي، وما عدت من بعدها إلى مثلها.

٤

الآن عرفت مبلغ عظتها، وفضل هدايتها، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس، فهأنذا أشعر كأن نفسي المرآة التي يغشاها الصدأ، وكأن الحب صيقل يصقلها، فيجلو صفحتها شيئًا فشيئًا.

كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغنًا وحقدًا، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل؛ لأن الحب ملك عليَّ قلبي واستخلصه لنفسه، فلم يترك فيه مجالًا لشيءٍ سواه.

كنت ضيق الصدر إن مسني ضرٌّ، سريع الغضب إن فاتني مأربٌ، فأصبحت فسيح رقعة الحلم، لا يستفزني غضبٌ، ولا يحرجني محرج؛ لأني قنعت بسعادة الحب، فأغفلت بجانبها جميع أنواع السعادة.

كنت شديد القسوة، متحجر القلب، لا أعطف على بائسٍ، ولا أحنو على ضعيفٍ، فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري،

وأتألم لبؤس البائسين وحزن المحزونين؛ لأن الحب أشرق في قلبي فملأه نورًا، فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلًا بينه وبين القلوب.

وبالجملة كنت وحشًا ضاريًا أعيا العالمين رياضته، فصرت بين يدي الحب الشريف إنسانًا شريفًا، وملكًا كريمًا.

٥

خرجت بها الليلة إلى شاطئ النهر، وكان الماء رائقًا والسماء صافية، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته، فاختلط علينا الأمر حتى ما نفرق بين الأصل والمرآة، ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء.

فمشينا طويلًا لا يكلم أحدنا صاحبه، كأن سكون الليل سرى إلى أفئدتنا، وملأ ما بين جوانحنا، فأمسكنا عن الحديث هيبةً وإجلالًا.

وكنت أشعر في تلك الساعة بخفَّةٍ في جسمي، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل إليَّ أني لو شئت أن أطير عن وجه الأرض لطرت بغير جناح، وأني أستطيع أن أخترق بنظري حجاب السماء، وأنفذ إلى الملإِ الأَعلى، فأرى هنالك ما هو محجوبٌ عن نظر الناس أجمعين. وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فلا يهتدي إلى أفقه، وأن يتلفع الليل بردائه فلا يعثر به فجره، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم، وما دام الظلام. فالتفت إليها وسألتها هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها؟

قالت: لا؛ لأني أعرف من شئون الأيام وأطوارها غير ما تعرف؛ ولأني لا أنظر إلى الدنيا بالعين التي تنظر بها إليها.

أنت سعيدٌ بالأمل، وأنا شقيةٌ بالحقيقة الواقعة.

إنك سعيدٌ؛ لأنك تظن أن سعادتك دائمةٌ لا انقطاع لها، وأنا شقية لآني أتوقع في كل ساعةٍ زوالها وفناءها.

إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء، وأن تحول بين الأرض ودورانها، وأن تمنع الساكن أن يتحرك والمتحرك أن يسكن، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها.

وهنا أَمْسَكت عن الكلام، وأطرقت برأسها طويلًا، فرأيت مدامعها تنحدر من مقلتيها كأنها عِقْدٌ وهَى سِلْكُه، فانتثرت حبَّاته، فبكيت لبكائها، وقلت: «لم تبكين؟» قالت: «من خوف الفراق.» قلت: «فراق الحياة أو فراق الممات؟» قالت: «لا أريد فراق الحياة، فليس في هذه الكائنات من ناطقها وصامتها ما يمنعني من الوصول إليك ما دام يجمعني وإيَّاك عالم واحد، أنا لا أخاف إلا فِرَاق الموت.» قلت: «هل لك أن نتعاهد أن نعيش معًا ونموت معًا؟» فتعاهدنا ثم عدنا على أعقابنا، والليل يشمر أذياله للفرار من وجه النهار، ثم افترقنا على ميعاد، وذهب كلٌّ منَّا لسبيله.

٦

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعةً واحدة عن هذا الإنسان؟

ألا يستطيع أن يسقيه كأسًا لا يخالطها كدرٌ ولا يمازجها شقاء؟

ألا يستطيع أن يمنعه السعادة ما دام يمنحها اليوم ليسلبها غدًا؟

إنَّ الإنسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المسلوبة.

يقولون: إنَّ الأمل حياة الإنسان، وما يقتل الإنسان إلا الأمل، فليتني ما سعدت؛ لأنني ما شقيت إلا بسعادتي، وليتني ما أمَّلْت؛ لأن اليأس القاتل ما جاء إلا من طريق الأمل الباطل. ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي، وأشعة آمالي، وينبوع سعادتي وهنائي.

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا بهاءً وجمالًا، فمات بموتها كل حيٍّ في هذا الوجود.

أرى الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، وأرى الطير صامتةً لا تغرد، والغصون ساكنةً لا تتحرك، وأرى النجوم آفلةً، والزهور ذابلة، والطبيعة واجمةً حزينة لا يفتر ثغرها، ولا يتلألأ جمالها، وأرى الدنيا كأنها عادت إلى عصرها الأول لا يسكنها إنسان، ولا يخطر بها حيوان، وكأنني فيها آدمها يندب جنته، ويشكو وحدته.

أيها الدهر الغادر! إن غلبتني عليها فلن تغلبني على نفسي، لك أن تُخرج من الدنيا من تشاء، وليس لك أن ترد إليها من يخرج منها.

ويا أيتها النفس الهائمة في سمائها! لا تجزعي ولا تعجلي،

فوالله لأفين بعهدك، ولأُذهبن عما قليل وحشتك، وليكونن عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا، فما تعارفنا في العالم الأول إلا بأرواحنا، فلنكن كذلك في العالم الثاني.

غدر المرأة

يقصون في القصص الخرافية أنَّ حكيمًا من حكماء اليونان كان يحب زوجته حبًّا ملك عليه عقله وقلبه. وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد، وكان يمازج هناءه الحاضر شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها فيموت، ويفلت من أشراكه ذلك القلب الذي كان مغتبطًا باعتلاقه إلى صائدٍ آخر يعتلقه من بعده. وكان كلما أبث زوجته سره، وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهم حنت عليه، وعللته بمعسول الأماني، وأقسمت له بكل محرجةٍ من الأيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حيًّا وميتًا، فكان يسكن إلى ذلك سكون الجُرْح الذَّرِب تحت ميزاب الماء البارد، ثم يعود إلى هواجسه ووساوسه. حتى مر في بعض روحاته إلى منزله في ليلةٍ من الليالي المقمرة بمقبرة المدينة، فبدا له أن يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفةٍ بين قبور الموت، وكثيرًا ما يتداوى شارب الخمر بالخمر، ويدفع الخوف الخائف إلى مبعث خوفه، ويلذ للجبان – وهو يرتعد فرقًا – الإصغاء إلى حديث الأفاعي وقصص الجان، فرأى في بعض مسالكه بين تلك القبور امرأةً متسلبةً جالسةً أمام قبر جديد لم يجف ترابه، وبيدها مروحةٌ من الحرير الأبيض مطرزةٌ بأسلاك الذهب تحركها يمنةً ويسرة، لتجفف بها بلل ذلك التراب. فعجب لشأنها، وتقدم إليها، فارتاعت لمرآه، ثم أنست به

حينما عرفته، فسألها ما شأنها، وما مقامها هنا، ومن هذا الدفين، وما الذي تفعل، فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها.

فجلس إليها، وتناول منها المروحة، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب، فحدثته أن هذا الدفين زوجها، وأنه دفن منذ ثلاثة أيام، وأنها منذ الصباح جالسةٌ مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاءً بيمينٍ كانت أقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف ترابٍ قبره، وأنَّ هذه الليلة هي موعد بنائها بزوجها الثاني، فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن إليها أن تحنث بيمين كانت أقسمتها له، أو تخيس بما عاهدته عليه. ثم قالت له: «هل لك يا سيدي أن تقبل هذا المروحة هدية مني إليك، وجزاءً لك على حسن صنيعك معي؟» فتقبلها منها شاكرًا بعد أن هنأها بزواجها الجديد، ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية. ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدث نفسه ويقول: إنه أحبها وأحسن إليها، فلما مات جلست فوق قبره، لا لتبكيه ولا لتذكر عهده، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي أقسمتها له، فكأنما وهي جالسة أمام زوجها الأول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني، وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل أمامها جبينها، وتصفف طرتها، وتلبس حليتها بين سمعه وبصره للزفاف إلى غيره!

وما زال يحدث نفسه بمثل ذلك حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر، ورأى زوجته ماثلةً أمامه مرتاعةً لمنظره المحزن،

فقال لها: «إنَّ امرأةً خائنةً غادرة أهدت إليَّ هذه المروحة، فقبلتها منها لأهديها إليك؛ لأنها أداةٌ من أدوات الغدر والخيانة، وأنت أولى بها مني.» ثم أنشأ يقص عليها قصة المرأة حتى أتى عليها، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها، وأنشأت تسب تلك المرأة، وتنعى عليها غدرها وخيانتها، وتلقبها بأفحش الألقاب وأقبحها، ثم قالت: «ألا يزال هذا الوسواس عالقًا بصدرك ما دمت حيًّا؟ وهل تحسب أن امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة؟» فقال لها: إنك أقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي، فهل تفين بعهدك؟» قالت: «نعم، ورماني الله بكل ما يرمي به الغادر إن غدرت.» فاطمأن لقسمها، وعاد إلى راحته وسكونه.

مضى على ذلك عام، ثم مرض الرجل مرضًا شديدًا، فعالج نفسه، فلم يجد العلاج حتى أشرف، فدعا زوجته، وذكرها بما عاهدته عليه، فادَّكرت، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه، فأمرت أن يسجى في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني، ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكي عليه وتندبه، وإنها لكذلك إذ دخلت عليها الخادم وأخبرتها أن فتًى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته لما سمع بأمر مرضه، وأنها حدثته حديث موته، فصعق في مكانه حزنًا ووجدًا، ولا يزال عند باب المنزل مطرحًا لا تدري ما تصنع في أمره! فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف، وأن تتولى

شأنه حتى يستفيق، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها. فلما مر الهزيع الثاني من الليل دخلت عليها الخادم مرة أخرى مرتاعةً مولهة، وهي تقول: «رحمتك وإحسانك يا سيدتي، فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذابًا أليمًا، وقد حرت في أمره، وما أحسبه إن أغفلنا أمره ساعةً واحدة إلا هالكًا.» فراعها الأمر، فقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفة المريض، فرأته مسجًى على سريره والمصباح عند رأسه، فاقتربت منه ونظرت في وجهه، فرأت أبدع سطرٍ خطته يد القدرة الإلهية في لوح المقادير. فتخيلت أن المصباح الذي أمامها قبسٌ من ذلك النور المتلألئ في ذلك الوجه المنير، وتمثلت كأن أنينه نغمةٌ موسيقية محزنة ترن في جوف الليل البهيم. فأنساها الحزن على المريض المشرف الحزن على الفقيد الهالك، وعناها أمره، فلم تترك وسيلةً من وسائل العلاج إلا توسلت بها إليه حتى استفاق. ونظر إلى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء، ثم أنشأ يقص عليها تاريخ حياته، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعلمه، فعرفت مسقط رأسه، وصلته بزوجها، وأنه فتًى غريبٌ في قومه لا أب له ولا أمَّ ولا زوجة.

وهنا أطرقت برأسها ساعةً طويلة عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت، ثم رفعت رأسها وأمسكت بيده وقالت له: «إنك قد ثكلت أستاذك وأنا ثكلت زوجي، فأصبح همنا واحدًا، فهل لك أن تكون عونًا لي وأن أكون عونًا لك على هذا الدهر الذي

لم يترك لنا مساعدًا ولا معينًا؟» فألمَّ بما في نفسها، فابتسم لها ابتسامة الحزن والمضض وقال لها: «من لي يا سيدتي أن أكون عند ظنك بي، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليَّ عيشي وأفسد عليَّ حياتي، وقد أنذرني الطبيب باقتراب ساعة أجلي إلا أن تدركني رحمة الله، فاطلبي سعادتك عند غيري، فأنت من بنات الوجود، وأنا من أبناء الخلود.» فقالت له: «إنك ستعيش، وسأعالجك، ولو كان دواؤك بين سحري ونحري.» قال: «لا تصدقي يا سيدتي، فأنا عالمٌ بدوائي، وعالمٌ بأني لا أجد السبيل إليه.» قالت: «وما دواؤك؟» فامتنع عليها هنيهة لا يجيبها، فلما أعياه إلحاحها قال: «حدثني طبيبي أن شفائي في أكل دماغ ميت ليومه! ولقد علمت أن ذلك يعجزني، فأسجلت ألا دواء لي ولا شفاء.» فارتعدت وشحب لونها، وأطرقت طويلًا ثم رفعت رأسها هادئةً ساكنة، وقالت: «لا أزال أقول لك: إني سأعالجك، وإن كان دواؤك في ذهاب نفسي.» ثم أمرته أن يأخذ قسطه من الراحة، وخرجت من الغرفة متسللةً حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها، فأخذت منها فأسًا، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاسًا حتى وصلت إلى غرفة الميت، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريرًا مزعجًا، فجمدت في مكانها، وقد امتلأ قلبها رعبًا وخوفًا، وذهبت بها الظنون كل مذهب، ثم عادت إلى سكونها، فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير، ورفعت الفأس، وما كادت تهوي بها حتى رأت الميت

فاتحًا عينيه ينظر إليها، فسقطت الفأس من يدها، وسمعت حركةً وراءها، فالتفتت، فرأت الضيف والخادم واقفين يتضاحكان، ففهمت كل شيء.

وهنالك تقدم إليها زوجها وقال لها: «أليست المروحة في يد تلك المرأة الغادرة أجمل من الفأس في يدك؟! أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه؟!» فصارت تنظر إليه نظرًا غريبًا، ثم شهقت شهقةً كانت فيها نفسها.

الضاد

إذا كان العرب الأولون يعبرون بالرأس عن مئين من الأعضاء والعظام، والأعصاب والشرايين، فلم لا نعبر نحن بالضاد عن ثمانية وعشرين حرفًا؟ ونحن عربٌ مثلهم، تجري في عروقنا دماؤهم، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل، فسهمنا في الضاد سهمهم، وحقنا فيها حقهم، فِلِمَ يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجاتنا أكثر من حاجاتهم، ومرافقنا أوفر عددًا من مرافقهم وأوسع فصولًا وأنواعًا؟

أين باديتهم الخلاء الجرداء المقفرة المصفرة إلا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطن الإبل، ومراتع الشاء، ومرابض الوحش، ومغاور الجن، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات، وأنواع الآلات والأدوات، وغرائب المصنوعات والمنسوجات، وأكثرها مستحدثٌ مستطرف لم تغبر في وجهه عواصف البادية، ولم تلوثه الإبل والأبقار بأبوالها وأرواثها؟

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش أن تضيق حاجاتهم عن لغتهم فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسم للأسد، وأربعمائة للداهية، وثلاثمائة للسيف، ومائتين للحية، وخمسين للناقة، وتضيق لغتنا عن حاجاتنا، فلا نعرف لأداةٍ واحدةٍ من الآلاف المؤلفة من أدوات المعمل الواحد اسمًا عربيًّا إلا قليلًا من أمثال المسبر، والمبرد، والمنشار، والمسمار؟!

أيكون لسفينة البر – وهي لا تحمل إلا الرجل أو الرجل ورديفه – مائتا اسم، ومئين من الأسماء لأعضائها وأوصالها ورحلها وكورها، ولا يكون لسفينة البحر، وهي المدينة المتنقلة في الدأماء قليل من ذلك الحظ الكثير؟!

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمرٌ لغويٌّ يعقدونه في كل عامٍ بالحجاز بين نخلة والطائف يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم، يتناشدون ويتساجلون ويتحاورون، ويعرضون أنفسهم على قضاةٍ من نوابغهم يوازنون بينهم، ويحكمون لمبرزهم على مقصرهم حكمًا لا يرد ولا يعارض. ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتفرق لغتهم بين اليمن والشام، ونجدٍ وتهامة؛ لصعوبة التواصل في تلك البقاع، وبُعد ما بين قاصيها ودانيها؛ فكان مطمح أنظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغاتهم، وجمع شتاتها والرجوع بها جميعها إلى لغة قريش التي هي أفصح اللغات وأقربها مأخذًا، وأسهلها مساغًا وأحسنها بيانًا.

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن؟! إننا إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه؛ لأن تفرق اللغات في عصرهم لا يمكن أن يبلغ مبلغ تفرقها في عصرنا بين لغات العامة المتباينة، ولغة العلماء، ولغة الدواوين، ولغة القصاصين، ولغة الصحافيين.

إن كان الجاهليون في حاجةٍ إلى مجتمع لتوحيد اللغات المتفرقة، فنحن في حاجة إلى مجتمعاتٍ كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة جميعها، وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتابٍ واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به، ومجتمع دائمٍ لوضع أسماء للمسميات الحديثة - سواء كانت أعيانا أو معاني - بطريق التعريب أو النحت، أو الاشتقاق الكبير أو الصغير، وآخر للإشراف على الأساليب العربية المستعملة، وتهذيبها وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر، والوقوف بها عند الحد الملائم للعصر الحاضر ولأذهان المعاصرين، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرز منهم والمقصر، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشر.

سياحة في كتاب

أعجب ما أعرف من أمر نفسي أني أحب الجمال خيالًا أكثر مما أحبه حقيقة، فيعجبني وصف الروض أكثر مما يعجبني مرآه، ولا أطرب لمنظر الفتيات الجميلات طربي لمنظر القصائد الغزليات، وأحب أن أسمع وصف المدن الجميلة، وأن أقرأ ما يكتبه الكاتبون عن رياضها ومنازهها، وقصورها ودورها وسهولها وبطاحها، وأنهارها وجداولها، وميادينها وتماثيلها، وأنديتها ومجامعها، ولا يهمني أن أراها، كأنني أريد أن أستديم لنفسي تلك اللذة الخيالية، وأخاف أن تحول الحقيقة بيني وبينها، وأحسب أني لو كنت عاشقًا لأصبحت أضحوكة العاشقين، وأعجوبة الهازئين والساخرين، ويكون مثلي مثل ذلك الرجل الذي أحب امرأةً فاستزارها فمانعته حينًا، ثم زارته، فلما رآها تركها وذهب لينام، فعجبت لشأنه وسألته ما باله! فقال لها: «أريد أن أنام علني أرى طيفك في المنام!».

جاء يوم شم النسيم، فخرج الناس إليه يستقبلونه استقبال الجيش المدجج، للملك المتوج، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق بعد طول الفراق، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة، وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها، فمن صاعدٍ إلى رءوس الجبال، وساربٍ في سهول الرمال، وواقفٍ موقف الإعجاب

والإجلال، بين جمال الأنوار وأنوار الجمال، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات، وحسن الفتيات، لا يعلم أتشبه القامات الغصون، أم الغصون القامات؟

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب، وما كان لي أن أذهب مذهبهم؛ لأني لا أعجب بما يعجبون، ولا أُسَرُّ بما يُسرون، فقبعت في كِسْر بيتي أبحث عن ضالة خيالٍ أجد فيها من السعادة والهناء ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء، فلمحت بجانبي كتاب بلاغة الغرب – وهو الكتاب الذي ترجمه بعض فضلاء الكُتَّاب، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية، وزبدة ما جادت به قرائح كُتَّابها وشعرائها – فقلت: «حسبي من الرياض هذه الزهرات، ومن النسائم تلك النفحات».

خطوت الخطوات الأولى من سياحتي في هذا الكتاب، فرأيتني واقفًا تحت نافذة قصر اللوفر في باريس، ورأيت الناس وقوفًا في ذلك الميدان الفسيح، وقد ماج بعضهم في بعضٍ حتى ضاقت بهم رقعة الأرض، ورأيتهم يمدون أعناقهم إلى تلك النافذة، وينظرون إليها نظر المنجم في الأسطرلاب، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحاب. وإنهم لكذلك وإذا نابليون الأول قد أطل من نافذة قصره كما يطل البدر من وراء الأفق، يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس، وملك رومة كما يسميه أبوه، فضجَّ الناس لمطلعه ضجيجًا ملأ مسمع الخافقين، وابتسموا لمرآه ابتسامًا أضاء ما بين

المشرقين والمغربين. وهنا سمعت الشاعر الكبير يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلًا له: رويدًا أيها الرجل المغرور بالتاج والسرير، والملك الكبير، والجيش الخاضع، والشعب الطائع، أنت تقدر لطفلك في مستقبل الأيام ملكًا كملكك، ومجدًا كمجدك وعزًّا وسلطانًا كعزك وسلطانك، غير عالم بما تكتمه ضمائر الأيام من الحوادث العظام والخطوب الجسام، هل أخذت على الأيام عهدًا لنفسك فتأخذه لولدك؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك؟

أيها الملك المغرور! إنك ستفارق عما قليلٍ هذا القصر الكبير إلى ذلك الكوخ الحقير، وسيحيط بك الجند في منفاك إحاطة الإخضاع والإذلال، لا إحاطة الإعظام والإجلال، وسيموت ولدك محرومًا هذا العرش الذي هيأته له، بل محرومًا بضعة أشبار من تربة فرنسا، يضطجع فيها ضجعة الموت.

أيها الملك المغرور! لا تقل: إنَّ المستقبل لي، فإنما المستقبل لله.

تركت هذا الموقف الفخم الجليل، وقد امتلأت نفسي عبرةً بمصائر الأيام، ومصارع الكرام، وتقلبات الدهور ما بين رفع وخفض، وإبرام ونقض، ومشيت حتى وصلت إلى بريةٍ جرداءَ، ودويةٍ قفراء، لا يطرقها إنسانٌ، ولا يدب بها حيوانٌ، فلمحت على البعد رجلًا يمشي على شاطئ بحرٍ فوق أرضٍ رملية، يخدع ظاهرها ويقتل باطنها، ويدب الماء في أحشائها دبيب الصهباء في الأعضاء، ويكمن في صدرها كمون الأسرار في صدور الأقدار.

فما هي إلا بضع خطوات، حتى رأيت الرجل المسكين، وقد غاصت قدماه في الرمل، فحاول نزعهما فغاص إلى ركبتيه، فتحلحل فغاص إلى صدره، وما زال يساعد على نفسه بمنازعته ومحاولته حتى لم يبقَ له فوق ظهر الأرض غير فم يصرخ بالنداء، وعين تذرف بالبكاء، ثم ما لبثا أن غطاهما الرمل، فرفع يديه بالدعاء، فلم يجد من رحمة في الأرض ولا في السماء.

وقفت بين يدي هذا المشهد المؤثر المحزن وقفةً أرسلت فيها قطراتٍ من الدموع على هذا البائس المسكين، وقلت في نفسي: «إنني قد عجزت عن إسعاده في نكبته، ومعونته في شدته، فلا أقل من أن أسعده بقليلٍ من الزفرات، ووشل من العبرات».

ثم فارقته ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر «لامارتين» فرأيته جالسًا في غرفته، وليس معه في منزله من يؤنسه غير كلبه، فسمعته يخاطبه، ويقول له: «أيها الكلب الأمين، قد هجرني الناس وبقيت بجانبي، وخانني الأصدقاء ووفيت لي، فأنت في نظري أوفى الأوفياء، وأصدق الأصدقاء، ولولا أنك كريم الأخلاق متواضع تأبى إلا أن تعرف لسيدك منزلته من السادة عليك، وتحفظ له فضل ما أسدى من النعمة إليك، لأكبرت جلستك هذه عند عتبة الباب، ولأجلستك بجانبي؛ لأنك صديقي ومؤنسي، ولأنك أحق بالإكرام من كثيرٍ من أولئك الذين يفترشون الطنافس، ويتوسدون الوسائد، حسبي منك نظراتك التي تنظر بها إليَّ بود وإخلاصٍ، كأنني أشعر

حينما أراك تحدق بي أنك تفتش عن سريرتي في أسرَّتي، وتقرأ في صفحة وجهي ما غاب عنك من دخيلة أمري، وكأنني أسمعك تقول: «ما باله؟ وما شأنه؟ وما الذي يحزنه؟ وما الذي يبكيه؟» حسبي منك ذلك، وهل يجد الإنسان من أوفى أصدقائه أكثر مما أجده في لفتاتك، وألمحه في نظراتك من الاهتمام بأمري، والعناية بشأني، والحزن لحزني، والبكاء لبكائي؟».

سمعت «لامارتين» يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق، فانسللت وذهبت لشأني، وأنا أقول في نفسي: «إذا كان لامارتين، وهو أشعر شاعر في فرنسا - وفرنسا مهبط وحي الشعر - لم يجد صديقًا وفيًّا غير كلبه المقعي على عتبة غرفته، فأين يذهب سائر الشعراء؟ ومتى يجدون الأصدقاء؟».

تركت منزل «لامارتين» وذهبت إلى منزل «دي موسيه» فرأيته معتزلًا في غرفةٍ من غرف منزله يبكي بكاء مرًّا، ويزفر زفيرًا تكاد تتقطع له أحشاؤه، فقلت: «ليت شعري ما أبكاه، وما الذي دهاه؟!» فسمعته يترنم بقصيدةٍ من قصائده يشرح فيها تاريخ وجده وهواه شرحًا مؤثرًا مؤلما، حتى خيل إليَّ أن كل بيتٍ من أبياتها جذوة نارٍ ملتهبة، وسمعته يشكو فيها خيانة حبيبته «جورج صاند» ويعالج نفسه على أن يسلوها، ويتناسى عهدها وذمامها، فلا يجد إلى ذلك سبيلًا، وما هو إلا أن أتم قصيدته حتى تغير لونه، وشخص بصره واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة بين أيدي الرياح

العاصفة، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم، ويخلط في كلامه خلطًا شديدًا، فعلمت أنَّ الرجل قد جُنَّ، وأنَّ العالم الشعري قد فجع فيه، فمضيت لسبيلي وأنا أسأل الله العافية، وأقول: «إنَّ جمال المرأة أحقر من أن يقتل أوفر عقل، وأعجز من أن يطفئ أكبر قريحةٍ، ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا، وأمر الغيب سر محجب».

تركت منزل «دي موسيه» ومشيت في شارعٍ من شوارع باريس، فرأيت شيخًا رث الثياب زري الهيئة، يمشي مشيةً هادئة مطمئنة، ويجر في رجليه نعلًا بالية قد أطلت أصابعه من خروقها كما تطل الحيات من أجحارها، فأتبعته نظري، فرأيته لا يرفع طرفه سكونًا وإطراقًا، ولا يحرك عضوًا من أعضائه رزانةً ووقارًا، فقلت في نفسي: «إنَّ لهذا الرجل شأنًا!» فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت إسكافٍ، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه، فجلس على الأرض ينتظره حتى يعود، فيخصف له نعله، فسألت بعض المارة عنه، فقال: «هذا كورني شاعر فرنسا.» فأخذتني الدهشة، وملكني العجب حتى كاد يحول بيني وبين عقلي، فقلت في نفسي: «ويحٌ لكم معشر الناس، أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر على رجل يقلد أعناقكم الدر والجوهر؟! أعجزتم عن أن تجمعوا أمركم على أن تمسحوا هذه الغضون في تلك الجبهة التي تجود عليكم كل يوم بما يفرج كربتكم، وينعش نفوسكم؟!». ثم رجعت أدراجي، وأنا أقول: «كأن قضاءً حتمًا على الدهر ألا

ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون، ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون!»

إنَّ في جلسة «لامارتين» منفردًا في منزله لا مؤنس له غير كلبه، وفي عزلة «دي موسيه» في غرفته وخلوته ببكائه ونحيبه، وفي ضجعة «كورني» أمام حانوت الإسكاف، لآيةً للمتفكرين، وعبرةً للمعتبرين.

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب أشكر للكاتب ما كتب، وللمترجم ما ترجم، وأقول: «من لي في كل يومٍ بسياحةٍ مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب؟».

دمعة على الأدب

مات بالأمس إمام الشعر البارودي، وإمام النثر محمد عبده، فجزعنا ما جزعنا، وسكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا، ثم كفكفنا من تلك الدموع، وخفضنا من زفرات الضلوع، حينما سمعنا قول القائل: إنَّ في الباقي عزاءً عن الفاني، وإنَّ في الأبناء خلفًا من الآباء، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر، والدهر إثر الدهر، والأدب جاثٍ في مكمنه جاثمٌ، لم يبعث من مرقده بعدما قبرناه، ولم ينشر من قبره بعدما واريناه، فتساءلنا: أين الباقي الذي يزعمون، والخلف الذي يذكرون؟

أين فطاحل اللغة الأدبية لا السياسية، وأرباب الأقلام العربية لا الأعجمية؟ عذرنا المويلحي الكبير واليازجي؛ لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما، فهل مات شوقي، وحافظ والبكري، والمويلحي الصغير؟ ما مات منهم أحد، وإنما كانت حياة الرجلين حياة الصناعتين، وكان لوجودهما سرٌ من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها، والأقلام فيجريها، وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء، تشتعل المصابيح بتيارها وتضيء بأسرارها، فإذا فرغت مادتها وانقضى أجلها عم الظلام واشتد الحلك، والمصابيح كما هي جسم بلا روح، ولفظٌ بلا معنى.

أما شوقي فقد طار في جوٍّ غير هذا الجو، وهام في وادٍ غير ذلك الوادي، وما زالت تعبث به الأنواء حتى أغرقته في شبرٍ من الماء! وأما حافظ فقد انقضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء، أما حياته الشعرية، فلم يبقَ منها غير نظم المقالات السياسية من العام إلى العام، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان؟ وأما البكري والمويلحي، فقد قضيا حق التأليف هذا بصهاريجه، وذاك بفتراته، ثم لحقا بالسابقين، ومضيا على أثر الماضين:

أين سكانك لا أين لهم ... أحجازًا أوطنوها أم شآما؟

أين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها، ونهصر أغصانها، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها؟ وأين البلابل التي كانت تتنقل بين أشجارها، فتطرب بالأغاريد، وتستهوي بالأناشيد؟

فاسألْنها واجعل بكاك جوابًا ... تجد الدمع سائلا ومجيبا

أنا لا أعجب لشيءٍ عجبي لهؤلاء الأدباء، يحزنون فلا يبكون، ويطربون فلا يضحكون، ويتألمون بلا أنين، ويعشقون بغير حنين.

أيطرب البلبل فيغرد، ويشجى الحمام فينوح، ويطرب الشاعر ويشجى الكاتب فلا ينطق لسانهما ولا يهتز قلمهما؟!

لما أسنَّ عمر بن أبي ربيعة ورأى أن الغزل والتصابي غير لائقٍ بشيبه ووقاره عزم على هجره، فما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وغلب

على أمره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه؛ فاحتال لذلك بأن حلف ألا يقول بيتًا من الشعر إلا أعتق رقبة، فشكا إليه رجلٌ حبًّا برح به، فحن واهتاج، ونظم أبياتًا في شأن الرجل ووجده، ثم أعتق عن كل بيت رقبة.

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عمر بن أبي ربيعة، وهم في شرخ الشباب وإبان الفتوة؟ إن كانوا فعلوا ذلك، فأسأل الله لهم قصةً كقصة عمر تهيج أشجانهم فتحنث أيمانهم، والأمة كفيلةٌ لهم بوفاء النذور، وكفارات الأيمان:

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوقٌ حين يلقى العاشقينا

الصحافة

يا صاحب النظرات

أنا عاملٌ من العمال في دائرةٍ من دوائر الحكومة أتناول منها في كل شهر عشرةً ذهبًا، وقد أشار عليَّ بعض الذين يعتقدون أنني صاحب قلم أن أستقيل من ذلك العمل وأشتغل بالصحافة، وحجتهم في ذلك أن الصحافي يخدم أمته أكثر مما يخدمها غيره، وأنه يربح من المال أكثر مما يربح سواه، وقد أوشكت أن أصغي لقولهم، وأعمل برأيِهم، فماذا ترى؟

أشِرْ عليَّ برأيك، فقد أصبحت أعتقد أنك أعقل الكُتَّابِ وأكثرهم إخلاصًا، والسلام.

موظف

أيها الرجل، لا تفعل، فإنك إن فعلت خسرت ماضيك من حيث لا ينفعك مستقبلك، فاحذر أن يخدعك عنك خادعٌ، واربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين!

إنك لن تستطيع أن تكون صحافيًّا رابحًا إلا إذا كنت صحافيًّا كاذبًا، فإن كانت منزلة الأخلاق عندك دون منزلة المال فامض لشأنك.

أنت في مستقبل أمرك بين اثنتين: إما أن تكون صاحب الصحيفة، أو أحد المحررين فيها.

فإن كنت الأول، فأنت بين خاصةٍ لا يرضيهم إلا أن تصعد عندهم، وعامةٍ لا يعجبهم إلا أن تهبط إليهم، فإن صعدت إلى الأولين هلكت؛ لأن الخاصة هم الأقلون عددًا والأقلون مالًا. وإن نزلت إلى الآخرين خسرت؛ لأن العامة يبغضون الحقيقة، ويبغضون لأجلها المحقين. وإن وقفت في منزلةٍ بينهما سخط الفريقان عليك وارتابا بك، وأقسما جهد أيمانهما أنك من المرائين المتقلبين. وإن كنت الثاني، فسيبتليك الله برئيسٍ يحرج صدرك بمقترحاته، ويجرح قلبك بمؤاخذاته، ويطلب عندك من الرأي والفهم والأسلوب والنسق ما عند نفسه، وهيهات أن يجد عندك ما يريد منك إلا إذا صح مذهب التقمص، واستطاعت نفس كل منكما أن تتسرب في أطواء صاحبتها وتتلاشى فيها.

ذلك إلى ما يرزؤك به كل يوم من الوقوف بينك وبين عقلك، فيستكتبك ما يريد، ويحول بينك وبين ما تريد، فكأنما يعمد إلى عقلك – وهو أثمن من الجوهر – فيبتاعه منك بلقيماتٍ لا تكاد تقيم بها صلبك، وكأنما إدارة الجريدة التي تعمل فيها آلةٌ ميكانيكية أنت فيها عمود يدور اضطرارًا لا إنسانٌ يتحرك اختيارًا.

إنَّ هؤلاء الكاتبين الذين تراهم جلوسًا على مقاعدهم في إدارات الجرائد المصرية أسوأ الناس حظًّا، وأعظمهم شقاء، يكتب أحدهم في الصباح ما يستحيي له في المساء، ويقول في المساء ما يكتب غيره في الصباح، ويظل طول حياته كرةً تتلقفها الأحزاب في أنديتها. ولقد

يكتب أحدهم الرسالة يذيب فيها دماغه، ويريق فيها عصارة مخه حتى إذا استوت له، وظن أن قد بلغ من الإحسان غايته، رفعها إلى رئيسه، فما هو إلا أن يقرأها ويرى فيها مدح من لا يحب أو نقد من لا يكره حتى يرمي بها وجهه، ويردها عليه ردَّ المبتاع على البائع سلعته، فيعود بها باكيًا مستعبرًا، ولا يعلم إلا الله ما يلم بقلبه في تلك الساعة من الحزن على حياةٍ كلها نفاق ورياء، وذل وضرعٌ، يتلمس فيها عقله فلا يجده؛ لأن الصحافة قد ملكته عليه، وسلبته إياه، ويسائل عن فهمه وإدراكه فلا يهتدي إليهما، ولا يعرف لهما وجودًا خاصًّا بهما؛ لأنه أصبح لا ينطق إلا بلسان غيره، ولا يكتب إلا بقلم سواه.

لولا أنَّ الله سبحانه وتعالى صنع لهؤلاء المحررين فرحمهم بتلك البساطة التي أودعها عقول السواد الأعظم من هذه الأمة، لما وجدوا في الناس من يسمع لهم قولًا، أو يعتمد لهم رأيًا.

من ذا الذي يحفل بفكرةٍ يعلم أنها لم تخالط قلب الكاتب، ولم تمتزج بأجزاء نفسه، ولم تلتئم مع ما يعرف له من أخلاقه وطباعه وميوله وأهوائه، وما هي إلا طريدةٌ من طرائد الحاجات، وصنيعة من صنائع الحوادث، تعرض ثم تزول كما تعرض وتزول نقائضها وأضدادها، كالأمواج يأخذ بعضها برقاب بعض، وتحل أخراها محل أولاها؟

من ذا الذي يحفل بفكرة كاتبٍ يحرر في «المؤيد» اليوم، فينتقد «اللواء» وكاتبه، ويحرر في «اللواء» غدًا، فيذم «المؤيد» وصاحبه، حتى إذا صار إلى «الجريدة» ذم الجريدتين، واستهجن الخطتين؟

أنا لا ألوم المحررين على تقلبهم في المذاهب، واضطرابهم في الآراء، ولا ألوم أصحاب الصحف على وقوفهم في حياتهم هذه المواقف التي ساقهم إليها العيش، ونزولهم تلك المنازل التي ألقتهم فيها يد الحاجات، وإنما ألوم الأمة على استهانتها بأدبائها، واحتقارها لكتابها، وأنها لا تقيم من الوزن لحملة المحابر والأقلام ما تقيمه لحملة المزامير والعيدان، حتى إنك لترى الرجل الذي لا بأس بعقله ولبه وفهمه وإدراكه، يسهل عليه أن يمنح مائة دينارٍ لمغنٍّ واحدٍ غنَّى له صوتًا واحدًا في ليلة واحدة، ولا يسهل عليه أن يمنح مائة قرش لجمعية من جمعيات التأليف والنشر في كل عام، وتراه ينفق في العام على مسح نعاله عشرة دنانير، ولا ينفق واحدًا منها على مجموعة ثمينة مؤلفة من كتاب «التربية الاستقلالية» و«روح الاجتماع» و«البؤساء» و«سر تقدم الإنجليز» و«تحرير المرأة» و«عيسى بن هشام».

إني أتمنى على الله الغنى، لا لأني في حاجةٍ إلى المال، فقد رزقني الله منه ما يغنيني أن أطلب لنفسي من بعده مزيدًا، بل لأجمع خمسةً من كتاب هذه الأمة، وخمسة من شعرائها، وعشرة من علمائها في منزلٍ واحد، وأسبغ عليهم وعلى عيالهم من نعمة

العيش، ونعمة المال ما تثلج به صدورهم، وتطمئن به نفوسهم، ثم أقول لهم: «دونكم هذه الأمة فاكتبوا لها من الرسائل، وانظموا لها من القريض، وألفوا لها من الكتب ما تعلمون أنه يأخذ بضبعيها، ويطير بها من قرارة الجهل إلى سماء العلم، وكونوا فيما تأخذون به أنفسكم أحرارًا غير مقيدين، وطلقاء غير مأسورين، لا يزعجكم عن مكانكم مزعجٌ، ولا يكدر صفاءكم مكدرٌ، ولا يعجلكم من أمركم معجل، ولا يصدنكم عن سبيلكم خوفٌ من كساد بضاعتكم، أو حذرٌ من هياج الجاهلين عليكم» ثم أعمد إلى نفثات أقلامهم، فأنثرها على رءوس الناس نثرًا من حيث لا أبتغي لها ثمنًا، أو أطلب عليها أجرًا غير ذلك الأجر الذي يدخره الله في دار جزائه لعباده الصالحين. فليت شعري! هل يمنحني الله طِلبتي، أو يلهم قومًا من الأغنياء فكرتي؛ فيتم للأمة على يد تلك الجمعية العلمية الأدبية الحرة في عملها المستقلة برأيها في عشرة أعوام ما لا يتم لها على يد هؤلاء الصحافيين المقيدين، والمؤلفين المغلولين في عشرة أعوام؟!

أمنيةٌ شغفت روحي بها زمنًا   واليوم أحسبها أضغاث أحلام

أيها السائل، لا تحسد حملة الأقلام على صناعتهم، ولا يغرنك ما ترى لهم في نظر الأمة أحيانًا من مظاهر الإجلال والإعظام، وما يطرق آذانهم كل حين من أصوات التحبيذ والاستحسان؛ فإنما هي صورةٌ لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تقل: إنهم يخدمون الأمة، فلن يخدم الأمة مثل الغني عنها الذي لا يبالي بها رضيت

أم سخطت، قامت أم قعدت، ولا تقل: إنهم يربحون، فإنما هم يستنبطون أرزاقهم من شق القلم، وشق القلم لا يجود بالرزق إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال.

أمس واليوم

مثلنا، ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمدين الحديث ومن بعده، كمثل رجلٍ ضل به طريقه في ليلةٍ ليلاء غدافية الإهاب، حالكة الجلباب، قد تجسد ظلامها حتى كاد يُلمس بالراح، فانقلب جوهرًا بعد إذ هو عرضٌ، فأصبح كأنما هو فحمٌ سائلٌ، أو مدادٌ جامد، فأنشأ هذا الضال المسكين يخبط في ذلك الديجور ترفعه النجاد وتخفضه الوهاد، لا يرى علمًا فيهتدي به، ولا يتنور نجمًا فيعتمد في سراه عليه.

وإنه لكذلك، وقد استوت في نظره الجهات الست، فسماؤه أرض، وأرضه سماء، ووراءه أمامٌ وأمامه وراء، وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق، وأفرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطراتٍ ملتهبةً من ذائب أشعته المتلألئة، فعَشى بعد أن كان بصيرًا، فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئًا، وما زال في ضلاله القديم إلى أن زال ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء، وهو شر الضلالين، وأقتل الداءين، فإن ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء، فأما وقد أصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدنية الجديدة

التي همى سيلها على هذا العالم الإنساني، فرأى الغرب تربة طيبةً صالحةً فسقاها، فاهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ورأى الشرق تربةً صامتةً متحجرةً قد نجم فيها كثيرٌ من الأعشاب الضعيفة والجذور الفاسدة، فأما ما تحجر منها فلم تغنِ عنه السقيا شيئًا، وأما ما اخضر وترعرع فقد نما فاسدًا كأصله، وكان خيرًا له لو ذهب ذلك الفيضان به وبجذوره.

أي إنَّ المدنية الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متثاقلةٍ، فما خفق لها قلبه ولا اضطرب، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين، فصعدت بهم إلى سمائها خطوة خطوة - كما يعوِّد الطفل الصغير على المشي - وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا، فبلغوا ما أرادوا وهوينا إلى أعمق مما كنا، كالحجر الثقيل يرمى به في الجو، فإذا ارتد ارتد إلى حفرةٍ يدفن نفسه فيها.

أي إنَّ الغربيين أحسوا فنهضوا، فجدوا، فأثروا، فتمتعوا بثمرات أعمالهم، ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات، ووثبنا إلى الغاية وثبًا فسقطنا.

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة، فقد كانوا على علاتهم أسعد منا حالًا وأروح بالًا، وأهنأ عيشًا وأسدَّ خطوات في سبل الحياة، وكانت المعيشة فيهم اجتماعيةً أكثر منها أفرادية، فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيءٍ بالمملكة الدستورية المنظمة، يدبرها عقلٌ واحدٌ في جسومٍ

كثيرة متفقةٍ في الرأي، والدين والمذهب، والأخلاق والعادات، تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي المسامرة، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساحة المتنزه، يحبون الله ولا يختلفون إلا في الطريق إلى رضاه، ويحبون الوطن ولا يختلفون إلا في الطريق إلى خدمته، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم، ولغاتهم المكونة لهيئتهم الاجتماعية، ويفرون من العادات والمشارب الغربية عنهم فرارهم من الأسد، مخافة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتموت نفوسهم، فإذا هم ميتون، ثم لا يبعثون.

وكان بين الصغار في الأسرة والكبار فيها معاهدة رحمةٍ واحترام، يحترم الصغير الكبير، فيكبر عمله وإرادته ومذهبه، فإذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآةً له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب، حتى إذا أصبح الصغير كبيرًا وجد من صغيره ما وجد منه كبيره، فلا تزال سلسلة التوارث في العائلة متصلةً اتصالًا تعيا به الحوادث، وتكبو دونه عاديات الليالي.

ويرحم الكبير الصغير، فلا يألوه نصحًا في حاضره ومستقبله، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ، فإذا هو هو، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقده شيئًا.

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أثكلتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالبة، وزخارفها

اللامعة الباطلة، فانقلبت المعيشة البيتية الاجتماعية أفراديةً محضة، فالأخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقيٌ بأبيه، والأب شقيٌ بولده، وكأن ساحة المنزل ساحة الحرب، لا ترى فيها غير وجوهٍ مقطبة، ونفوسٍ منقبضة، وأشلاء فوق أشلاء، ودماء إثر دماء، وشقاء ليس يعدله شقاء!

ومن كان في شك من هذه الحقائق، فإني أكِله إلى جداول القضايا في المحاكم، فإن لم يرَ أن أكثر المخاصمات فيها – خصوصًا المدنية منها – واقعةٌ بين الأقارب وذوي الرحم، فله حكمه ما شاء.

وإن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها، فاسمع قصة رجلٍ مصري كان ذا ثروةٍ متوسطة، عاشرت آباءه أجيالًا متعددة، فما كانت تضيق بهم، وما كانوا يضيقون بها، وكان له ثلاثة أولادٍ و«امرأة جديدة» متعلمة تعرف كل شيءٍ إلا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها، وليتها جهلت كل شيء غير هذا، فتكون قد علمت كل شيءٍ! وتحب مطالعة الروايات الغرامية حبًّا ملك عليها مشاعرها وخوالجها، فربما عرض لها المهم من الأمر، فلا تخف له قبل فراغها من الفصل الذي تطالعه، وتحب التمثيل، فتقضي ليلها في مشاهدته، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على أخدانها وأترابها، وربما كانت تهمس في آذانهن أن ليتها ترى «روميو» فتكون له «جولييت»، وتبغض الحجاب بغض الحرائر للسفور، فيومها نصفان نصف للخروج، ونصف للتهيؤ له، فهي

خارج المنزل من مطلع الشمس إلى مغربها. بنى بها زوجها بعد وفاة زوجته الأولى، فلم يغتبط بها غير عام واحد، ثم ضرب الدهر ضرباته، فإذا بينهما عيشةٌ لا أظن أنَّ الجحيم أشد نكالًا منها.

أما أولاده، فأدخلهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغاتٍ مختلفة: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، ثم تخرجوا هذا إنجليزيٌّ بفظاظته وخشونته، وهذا فرنسيٌّ بخلاعته واستهتاره، وذاك ألمانيٌّ بخيلائه وكبريائه، وجمعيهم متفرنجون مشربًا ومذهبًا، ومطعمًا وملبسًا ومسكنًا، وما فيهم من تفرنج همةً وعملًا.

خرجوا من المداس بلا دين ولا وطن، أما الدين، فلأن أكبر مدارسنا - حتى الأهلية منها - مادية محضة، لا تعلق للدين بشأنٍ من شئونها، والدين خلق، شأنه كبقية الأخلاق لا يرسخ في النفس إلا بتكرر الصور الدينية، وتداولها عهدًا طويلًا، فإن بعد عهدها به أغفلته وأنكرته. وكذلك كان شأن هؤلاء الأولاد المساكين، فقست قلوبهم، وجمدت نفوسهم، وفقدوا بفقد دينهم أطيب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب، الحافلة بالكوارث والهموم.

والإنسان مهما طال حوله، وكثر طوله، واتسعت مذاهب قوته، فليس ببالغ من هذا الدهر المعاند ما يريد، لولا زهرة الأمل التي يتعهدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن، فيستروحٍ منها ما يروح عن قلبه، ويسري عن نفسه، ويقينه أن هناك حولًا أكبر من حوله،

وطولًا أعظم من طوله، وإلهًا قادرًا يقرب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه، وقصرت عنه قوته.

وأما الوطن، فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء ستارٍ أيدٍ أجنبيةٌ تربي التلاميذ لها لا لأوطانهم.

فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمعٌ من مجامع السفراء، عثمانيٌّ متمسك بعثمانيته، وإنجليزي يهتف ليله ونهاره بأن دولة الإنجليز سيدة البحار، وأنَّ الشمس لا تغيب عن أملاكها، وفرنسيٌّ يعبد فرنسا، ويسبح بحمدها، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة، وأنَّ أسعد المستعمرات مستعمراتها، وألمانيٌّ يستظهر خطب الإمبراطور غليوم، ويُنجِّم أنَّ المستقبل لألمانيا يوم يمحى اسم إنجلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا. وكثيرًا ما يقع بين المتفرنس والمتألمن النزاع الطويل في شأن الألزاس واللورين، وبين المتألمن والمتجلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلو، وأي القائدين كان له الغلب والفضل في كسر نابليون، بلوخر أو والنغتون! ولا يتفقون إلا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيلٍ، ويلبسونها ورجالها – قديمًا وحديثًا – أثواب المراقع المضحكة غيرِ مستحيين من أنفسهم ولا من الناس، ولا مبالين بالأدمع المنهلة من عينَيْ والدهم الجالس ناحيةً يندبهم، ويندب نفسه معهم. فبئس الاختلاف حين يختلفون، ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون!

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل، وتفرق أفراد تلك العائلة أيما تفرق، وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام. فلا يصطحبون في متنزه، ولا يجتمعون لصلاةٍ، ولا يتصادفون في سمرٍ، ولا يتفقون في شأنٍ من شئونهم البيتية، حتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشرب والملبس، وجميع مرافق الحياة، ما يطالبه به خُلقه المباين خُلق أخيه أو أبيه.

فأنَّى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة؟! وأنَّى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم، والمنزل قوام الأمة، تسعد بسعادته، وتشقى بشقائه؟!

وأي شأنٍ لهذه المعلومات المتكثرة التي حشروها إلى أذهانهم، وهل أفادوا بها إلا هذرًا في المنطق، وثرثرةً في اللسان، وشغلًا للأذهان لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلًا؟

ولو عقلوا لعلموا أنَّ المخترعات الحديثة والمكتشفات الجديدة، والعلوم العصرية إنما هي خدمٌ وحاشية بين يدي السعادة، والسعادة هي اللذة الباطنية التي يحس بها الإنسان عند أداء الواجب عليه لنفسه وعشيرته ووطنه ودينه، فما لم تكن مقدمةً لهذه النتيجة كان وجودها أشبه شيءٍ بالعدم.

ولو عقلوا لعلموا أنَّ الغربيين إنما يحفلون بجميع العلوم العصرية حتى علوم الأخلاق والآداب والدين باعتبار أنها وسائل مادية يتوصل بها إلى تحصيل مرافق الحياة المحصلة لرفاهية

العيش وسعادة الحال، ولا اعتبار عندهم لذواتها وأعيانها. فهم يعلمون للعمل، ويخترعون للمتاجرة، ويكتشفون للربح، ومن ظن غير ذلك فقد ضل ضلالًا مبينًا.

ولو عقلوا لعلموا أنَّ ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا – ونسميه نحن جهلًا وهمجيةً – هو خيرٌ من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به، وننعى عليهم تاريخهم من أجله؛ لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه بكثيرنا.

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وأنَّ مصر في أفريقيا، وسوريا في آسيا. ولكنهم كانوا يعلمون أنَّ وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوبٌ لديهم، وأنَّ أبناء وطنهم إخوةٌ لهم يسعدون معًا ويشقَون معًا، وأنَّ سعادتهم في استقلالهم، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية إليهم. وكانوا يجهلون الفرق بين المملكة والإمبراطورية والجمهورية، ولكنهم كانوا يعلمون أنَّ صاحب الأمر فيهم – كيفما كان لقبه – يجب طاعته والالتفاف حوله؛ للذود عنه وعن سلطته التي هي سلطتهم وقوتهم. وكانوا يعتقدون كثيرًا من الخرافات والأوهام، وأنَّ هناك أرواحًا خيريةً وشريةً تنفع وتضر. وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد، ويذعنون لرؤساء الأديان تحنثًا وتعبدًا، ورأيي أنَّ دينًا خرافيًّا وهميًّا خيرٌ من لا دين؛ لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس المتعبدين سلطانًا قاهرًا على نفوسهم يقاوم أهواء الشر فيها، ويطهرها من كثيرٍ من الرذائل

التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية؛ كالخيانة والكذب، والحقد والحسد، وسفك الدماء، واغتيال الأموال، وغير ذلك من الشرور الإنسانية التي لا تنزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجرٌ، والتي فشت اليوم بين أكثر المتعلمين الذين أخذوا العلم مجردًا عن التربية الصحيحة، كأكثر المتعلمين في مصر.

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في أكثر عقودهم – من بيع وشراءٍ، وهبةٍ وقرض ورهنٍ – على صدق ألسنتهم ووفاء قلوبهم، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ولا شهادة شاهد، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدانق والسحتوت، والويل ثم الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكه، أو أنكر شهوده، وكثيرًا ما يفعلون!

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم، ولكن لم يجنِ عليهم جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا! وكانوا محرومين أكثر ما ننعم به اليوم من مساكن زاخرةٍ، ومراكب فاخرةٍ، وملابس زاهية، ومناظر زاهرة، وفرشٍ وثيرةٍ، وآنية صقيلة، وأدواتٍ للمأكل والمشرب ثمينة، ولكنهم لم يكونوا محرومين في أنفسهم وفي خطرات عقولهم شيئًا من هذا كله؛ لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة، فنحن وهم سواءٌ في الرضا بحالتينا، إلا أن معيشتنا يكدرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء.

وها هي ذي دفاتر المصارف وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في غنًى عنها لولا المدنية الحاضرة التي قلبت الكماليات في نظرهم إلى حاجاتٍ، فبنوا القصور، وشادوا الدور، وما شادوا - لو يعلمون - إلا قبورًا دفنوا فيها راحتهم وهناءهم ومستقبلهم، ومستقبل ذريتهم من بعده؛ فإن هؤلاء الأولاد المساكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أرادوا ألا يُبقوا في قوس الحرية منزعًا، فأطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ، فكانوا يسهرون الليل بين رنين الكاسات، وغزل الغانيات، ثم ينامون النهار بين التمطي والثؤباء حتى نَبَتْ بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا عليه من علومهم ومعارفهم فأبعدتهم عنها، فأصبحوا كلًّا على أبيهم وعلى الناس، لم ينفعهم عملهم، ولم تغنِ عنهم شهاداتهم بعد أن نفخت الكبرياء في صدورهم فأبوا أن يتنزلوا للاحتراف بما يقوم معاشهم، كما يفعل أولئك القوم الذين أنضوا ركائب حياتهم في طريق تقليدهم، وباعوا في سوق التشبه بهم كل ما تملك أيمانهم وقلوبهم، وبعد أن ملكت الشهوات قيادهم، فما وجدوا في أنفسهم متسعًا لسواها، فأغروا بثروة أبيهم يأخذون منها بالحق تارة وبالباطل تاراتٍ، وقد كانوا قلصوا ظلالها أولًا بنفقات دراستهم، وثانيًا بابتياع ما حسن لفظه وقبح معناه من السلع الإفرنجية التي تفني خزائن روكفلر وروتشيلد قبل الوصول إلى إشباع بطون تجارها، فنضب معينها، ولم يبقَ منها حتى الذماء، فتبدل ذلك النعيم شقاءً، وتلك السعادة والرفاهية فقرًا وعدمًا.

أما الوالد فقضى شهيد العلوم والمعارف، والمخترعات والمستحدثات، وأما الأولاد فاغتالت أحدهم يد الزهري، وكانت لأمثاله من المغتالين، واحتوى الآخر فراش السلِّ حيث لا زائر ولا طبيب، وافترش الثالث تراب السجن على أثر جنايةٍ دفعه إليها العوز والحاجة، وفرَّت المرأة الجديدة إلى معرض الأعراض حيث يبتاعها الشقاء بثمنٍ بخسٍ، وهو فيها من الزاهدين.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزلٍ من منازلنا، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل إلا ما رحم الله، فلو أن باكيًا بكى على ما آلت إليه حالة هذه الأسرة الشقية، فهو إنما يبكي أسرًا متعددة، وأمة كاملة.

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقلت له: إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك

وجملة القول: إنَّ للحاضر سيئاتٍ فوق الماضي، فلا خير في العصرين، ولكن ويلًا أخف من ويلين، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير والشر، فالخير والشر معروفان حتى لأمة النمل، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرين، ولئن دام هذا الحال واطرد المقياس، فالغد شرٌّ من اليوم، كما كان اليوم شرًّا من الأمس.

البعث

هي قصةٌ خياليةٌ الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه، لم يُكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية.

اليوم الأول

نبا بي مضجعي ليلةً لهمٍّ نزل بي، والهم رسولٌ من رسل الشر ينزل بأهداب العيون، فلا يزال يسعى حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها، فظللت أساهر الكوكب حتى ملني ومللته، وضاق كل منا بصاحبه ذرعًا، فلما تقضَّى الليل إلا أقله، ولم يبقَ إلا أن تنفرجٍ لمة الظلام عن جبين الصباح، سمعت طارقًا يدق الباب دقًا ضعيفًا ما كدت أتبينه لولا هدوء الليل وسكونه، فقلت: «من الطارق؟» قال: «غريبٌ حائرٌ ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء، وأعوزه المأوى يطلب كريمًا يعتمد عليه، ومضجعًا يأوي إليه، وقد أعد لمن يسدي إليه تلك النعمة ذخيرةً صالحةً من شكرٍ لا يبلى ودعاء لا يخيب.» فأعجبت بعابر سبيلٍ يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعيا على جهد المتكلِّفين، وتزويق المزورين، وقلت في نفسي: «ما لهذا الرجل بدٌّ من شأن!» وفتحت الباب، فإذا شيخٌ كُنْتيٌّ من حملة

أعباء الدهر، قصير القامة، ناحل الجسم، زري الهيئة، قد نيَّف على الثمانين من عمره، فخيل إليَّ أن ظهره المحدودب قوسٌ، وأنَّ عصاه التي يعتمد عليها وترٌ قد شد إلى تلك القوس، وأنه قد أعد من هذه وتلك سلاحًا يذود به عن نفسه عادية المنون، فلما شعر بمكاني رفع رأسه إلى ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي، وأحاطت بما بين قمة رأسي وأخمص قدمي. فرأيت وجها أسمر اللون قد انتثرت في أكنافه حفائر الجدري، وأسارير تنطوي تارةً على عِبر القرون وحوادث الدهور، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى، ولحيةً بيضاء إلا أنها شعثاء، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نورٌ ساطع خفاق لا يراه الرائي حتى يطرق له إجلالًا وإعظامًا، وسحنة غريبَة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأمم وسودائها. وأحسب أن لو كان بين يدي مثالٌ من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها فمشيت إليه مشية الهائب الوجل، وقلت: «على الرحب والسعة يا سيدي، لقد حللت بمنزلٍ أنت صاحبه، وولي الأمر فيه.» ثم قدمت إليه يدي، فمشى معي يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة:

ما أوسع الموت يستريح به الجسـ ـم المعنَّى ويخفت اللجب

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف، فأعاد النظر إليَّ، وقال: «اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسي.» فتركته وذهبت إلى غرفة منامي، وقد أخذ منظر الرجل مكانًا من قلبي، وشغلني من أمره

ما كاد ينسيني هموم نفسي، فلم أزل أقلب النظر في حاله وأذهب المذاهب في استبطان سره حتى أخذ عينيَّ نومٌ ثقيلٌ لم أستيقظ منه إلا في صفرة الأصيل.

سألت الخادم عن الضيف، فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب، والمضجع والمستحم، وأنه لا يزال في مصلاه، فهبطت إليه في خلوته أَهْيبَ ما أكون له. فرأيته جالسًا إلى قبلته يقلب وجهه في السماء، ويكرر هذا الدعاء: «اللهم لا رادَّ لقضائك، ولا سخط على بلائك، أمرت فأطعنا، وابتليت فرضينا، فأمطرنا غيث إحسانك، وأذقنا برد رحمتك، وألهمنا جميل صبرك، وثبت قلوبنا على طاعتك، فلا عون إلا بك، ولا ملجأ إلا إليك، إنك أرحم الراحمين، وأعدل الحاكمين».

ثم أطرق بعد ذلك إطراقًا طويلًا خلت أنه وصل فيه إلى مقام التجريد، وأنَّ الذي أراه بين يدي جسدٌ هامدٌ قد أُسري بروحه إلى الملأِ الأعلى، فجعلت أختلس الخطى إليه حتى صاقبته، فرفع رأسه إليَّ ذاهلًا، وقال: «أنت هنا؟» قلت: «نعم.» قال: «في أي سنة نحن من تاريخ الهجرة؟» فعجبت لسؤاله، وقلت: «في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلاثمائة والألف.» قال: «ما اسم هذا المصر الذي تعمرونه؟» قلت: «القاهرة المعزية» قال: أفي هذه الأمة كثير مثلك؟» قلت: «لم أفهم ما تريد يا سيدي!» قال: «لقد استفتحت هذه الأبواب التي تليك فلم أجد من ورائها إلا ضعيفًا لا يلبث أن

يراني حتى يرعد مني فرَقًا، فيوصد بابه في وجهي، أو ضنينًا يرى بؤسي وشكاتي فيزوي ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني، أو أعجميًّا لا يفهم ما أقول، ولا أفهم ما يقول.» قلت: «ما في هذه الحلة التي تراها أعجمي.» قال: «إنهم خاطبوني بلحن لا أعرفه، وإن شئت أعدته عليك كما سمعته.» ثم أخذ يسرد عليَّ الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه إليَّ سردًا متواصلًا كما تسرد الببغاء كلماتها، فقلت: «إنك قد أعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري، فإنهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجميًّا يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه.» فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه، ورأرأ بمقلتيه، وزحف إليَّ حتى اصطكت ركبتانا، فعجبت لأمره، وما رأيت من استحالة حاله. ثم قال لي: «من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه؟» قلت: «رجلٌ من علماء الأمة العربية وشعرائها، عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة، نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب، ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب.» قال: «وما ظنكم به؟» قلت: «إنَّ الناس في أمره مختلفون، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له.» قال: «ومن أيهم أنت؟» قلت: «ممن يتشيع له، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبتٍ مستبصرٍ، فما شككت في مذهبه ودينه.» قال: «أكنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه؟» قلت: «ما أعدل بهذه الأمنية غيرها.» قال: «قد بلَّغك الله طلبتك».

قلت: «لم أفهم يا سيدي شيئًا مما تقول!» قال: «أكاتمٌ أنت عليَّ سري؟» قلت: «نعم.» قال: «أتقسم؟» قلت: «إنَّ للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم، ولو كنت متهمًا نفسي لأقسمت».

قال: «الآن عرفتك، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري» فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى أُسقط في يدي، وعلمت أني قد هلكت، وكان أول ما كان مني أن التفتُّ ناحية الباب لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب إن عرض لي من هذا المجنون عارض سوء. وكأنه ألم بما في نفسي فقال: «لا ألومك على ما ظننت، فقد قدرت قبل أن ألقي إليك كلمتي هذه أنها بالغةٌ منك ما بلغت، فهل تؤمن بالله؟» قلت: «نعم.» قال: «وتؤمن بالبعث؟» قلت: «نعم.» قال: «وما يريبك من رجلٍ أماته الله ثم بعثه بعد موته؟» قلت: «ذلك يوم يبعثون.» قال: «هبها قصة إبراهيم إذ قال له ربه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وبعد فوالله يا بني ما كفرت مذ آمنت، ولا كذبت مذ عرفت أنَّ الصدق منجاةٌ من النار، ولا استرد الله مني نعمة العقل بعدما منحني إياها، ولو كذبت الناس جميعًا ما كذبتك؛ فقد أسلفتَ إليَّ من أياديك ما لا أحتاج بعده إلى كذبةٍ أتنفَّق بها عليك، أو أزدلف بها إليك، وإني قاصٌّ عليك قصتي، فأصغ لها ولك بعد ذلك حكمك». فسري عني قليلًا ما كان ألمَّ بنفسي من القلق، فأقبلت عليه بوجهي فأنشأ يقول:

لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي، فقد حوسبت حسابًا غير يسير على الكبير والصغير، والدقيق والجليل، والقومة والقعدة، والخطرة واللمحة، وكل ما وجدته حاضرًا بين يدي في صحائفي، فكادت حسناتي تكافئ في الميزان سيئاتي، لولا تلك الكلمات التي كنت أرددها في حياتي الأولى في تزهيد الناس في النسل والزواج، فقد دخلت بها في زمرة المفسدين الذين تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع البشري، وطال حسابي عليها وحجاجي فيها، وكان لا بدَّ من العقاب، ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية مستشفعًا بها لا أريد رد القضاء ولكن أريد اللطف فيه، فتعلق محمد ﷺ بقوائم العرش الإلهي وقال:

اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهًا لها، متبرمًا بها، متسخطًا عليها، حابسًا نفسه في كِسر بيته فرارًا من أهلها، يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته، حتى لو رأى الشمس طالعة لتمنى ألا يرى مغربها، ولو رآها غاربة لتمنى ألا يرى مشرقها، وقضى قضاؤك الذي لا مرد له ولا محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل، فأسألك بقلمك النوراني الذي تمحو به في لوحك ما تشاء وتثبت، أن تقي جسمه – الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها، والصبر على آلامها وأهوالها – من عذاب النار، وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه، فعاقبه بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمه

ومستقر عذابه، وحسبه من العقاب أن يلقى فيها آخرًا ما لقي فيها أولًا، إنك بعبادك لطيف خبير.

فقبل الله شفاعة نبيه، وقضى أن أعود إلى الدار الأولى لأقضي فيها الأيام بعدد ما قضيت فيها من السنين، وقد علم سبحانه وتعالى أني كنت العهد الأول أحمده على العمى كما يحمده غيري على البصر، فرد إليَّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي وتعذيبي، فله الحمد على سرائه وضرائه.

هذه قصتي قصصتها عليك، وهذا أول يوم من الأيام التي سأقضيها في داركم هذه، فاكتم عليَّ أمري حتى ينقضي أجلي، وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها، فقد اغتبطت بك مذ رأيتك، وعلمت أنَّ الله ما قيضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى.

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثمًا وتقبيلًا، وعلمت أني قد أحرزت في بيتي كنزًا لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرورٍ ما كان يكدره عليَّ إلا خوف انقضائه.

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل، فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره، ثم ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقي غدًا.

اليوم الثاني

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره، ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعةٍ غير طبيعته، ورأيٍ غير رأيه، فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجاتٍ ربلاتٍ كنت أعددتهن للضيفان من قبل، فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرةً وإليَّ أخرى، ثم قال: «ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إليَّ؟» قلت: «إنهن دجاجاتٌ لم يكن للخادم الصغرى عندي شأنٌ غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن، فكانت تؤثرهن بأفضل ما نؤثرها به طعام وشرابٍ، وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلأن واكتنزن واستدرن للذبح، وكنت أبقي عليهن كلما طرقني طارقٌ إبقاءً على الفتاة أن ينفجر صدرها حزنًا على أترابها الصغيرات، أما اليوم فلم أرَ من ذلك بدًّا فذبحتهن إكرامًا لك، فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائهن!».

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقًا طويلًا سمعته يهمهم فيه بهذه الكلمات: «وا رحمتاه! ألا تزال هذه المدى موكلةً بهذه الأعناق؟ ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الحيوان الصامت حتى حسه ووجدانه، ويأبى إلا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم؛ لأنه صامتٌ لا ينطق، وأخرس لا يبين؟! وربما كان زقاء الديك، وقوقأة الدجاجة، وصرصرة البازي، وهديل الحمام، وزقزقة العصفور، وثغاء الشاة، ومواء الهرة، وخوار الثور، وحنين النيب، بكاءً

بغير دموع، وشكوى بغير لسانٍ، وربما كان يكتم ذلك الذبيح في نفسه من الَوجد والبرحاء ما لو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماءً، وفجر الصخر عيونًا!».

ثم رفع رأسه إليَّ وقال: «أما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئًا عندما أردت ذبحهن؟» قلت: «لا يا مولاي، ومتى قلن للناس شيئًا فيقلن لي؟!» فنظر إليَّ نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت، ثم قال: «أما لو أنَّ الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له: مهلًا! رويدًا أيها القاتل السفاك! لا تدن مني، ولا تمدد يدك إليَّ، فلا شأن لك معي، ولا ترة لك عندي!

أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي، وأنا لا أريد أن أموت، ولا رغبة لي في فراق الحياة؛ لأن ورائي أفراخًا صِغارًا هن إلى حياتي أحوج منك إلى مماتي، وليس من الرأي أن أَكِل أمرهن إليك من بعدي؛ لأنك شرهٌ طماعٌ، لا يشبع بطنك، ولا تهدأ مديتك.

أنت لا تملك أن تعطيني الحياة، فلا تملك أن تسلبني إياها.

كل ما تستطيع أن تمن به عليَّ أنك كنت تطعمني وتسقيني، فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني إلا فتات مائدتك، ولا تسقيني إلا غسالة يديك، وأنك ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحسانًا إليَّ، بل لتهيئ لنفسك ما يسد شهوتها ويطفئ لوعتها، وهل تعلم أنك أنت الذي سجنتني في أقفاصك، وحلت بيني وبين رزق الله

أطعمه أنى ذهبت وأين حللت من حيث لا يساومني فيه مساومٌ، ولا يحاسبني عليه محاسب؟

أمن أجل تلك الخشارة القذرة والجرعة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي أفراخي، ولا ذنب لي ولا لهن عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك، وحماة آلك من بنات الأرض وهوامها ورسل الفجر المنير إليك؟

لا تظلم السبع بعد اليوم، ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه، فكلاكما وحش، وكلاكما مفترس، لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن، فهو يبقر البطون بأظافره وأنت تفري الأوداج بمداك، لا بل إنَّ جريمتك أكبر من جريمته، وعذرك أضعف من عذره؛ لأنه يفترس ليشبع بطنه، وأنت تفترس لترفه نفسك، ولأنه يعجز عن الاحتيال لقوته، وأنت على ذلك من القادرين.

استضعفتني فبرزت إليَّ، فهل برزت لشبل الأسد أو ديسم الدب، أو فرعل الضبع، أو حرش الحية، أو هيثم النسر، أو ناهض العقاب؟

ما أخبثك أيها الإنسان عاجزًا! وما أظلمك قادرًا! وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائك!

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذنًا كالآذان وبصيرةً كالبصائر، ولكن الناس لا يعلمون.

هيه يا صاحب الدجاجات! حدثني عنك، ألم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها منادح لإكرامي والقيام بحقي، وأنت تعلم أنني رجلٌ سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى أربعين سنةً ونيفًا لم أذق فيها لحم الحيوان، ولا ثماره، ولا نتاجه، فحميت نفسي حتى عسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأثداء، وأقنعتها بالبلسن طعامًا، والبلس حلوى لأني كنت أعلم أنَّ النبات طعامي الذي لا يلائمني غيره ولا يشبهني سواه، وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاه الغليظة والأنياب العريضة، والأظفار الحادة، والجلود المزأبرة، والأعضاء المتوثبة والهامات الضخمة. وكنت أرى أنَّ أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها، ويجترونها إلى طبائعهم اجترارًا؛ لأنهم لا يأكلونها إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف والتقديد، والشي والقلي، ومزجوها بالخضر والتوابل والأباريز والأقزاح مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات. حتى إذا نزل بهم عارض مرضٍ نزعوا عنها، وبرئوا إلى الله منها، وفزعوا إلى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم، كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له.

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون عليَّ رأيي في ترك ذلك الطعام، ويمعنون في مساءلتي عنه، وحجاجي فيه، وحملي عليه، ويلحون في ذلك إلحاحًا شديدًا حتى ظننت

أنهم قاتليَّ من دونه، كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم، أو أنَّ الله تعالى أنزل عليهم قرآنًا ألا يقيم لهم يوم القيامة وزنًا، ولا يقبل منهم صرفًا ولا عدلًا إلا إذا قدموا عليه ببطونٍ بجرٍ مكتظةٍ بلحوم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب، لتفتح لهم أبواب الجنان! وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه، وترك ما أمرهم أن يتركوه، فلم يبقَ بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم؛ مخافة أن ينقلب المباح بإعراضهم عنه حرامًا، كما ترك النبي ﷺ صلاة التراويح بعد أدائها؛ مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضةً.

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السحت أو الميتة والدم ولحم الخنزير، أو أموال الناس بالباطل، لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح، ما تركته نقمةً على الشريعة، أو تبرمًا بها، أو تمردًا عليها. ولكنني كنت امرءًا جزوعًا، يزعجني منظر الشرائح الحيوانية على مائدتي؛ لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه. وكنت فقيرًا بائسًا لا أملك في كل عام من الرزق إلا عشرين دينارًا ونيفًا لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين، وما كنت أجد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية والتكفف؛ أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين، وقد علم الله من شأني أنني رجلٌ لو علمت

أني إن أذلت ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قدم وزير أمطرت السماء عليَّ ذهبًا واستحالت الحصباء تحت قدمي درًّا ما فعلت؛ ضنًّا بنفسي على هذا الموقف المستوبل، وإيثارًا للرضاء بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده.

فلم أرَ خيرًا من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه، ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون للتحريم والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل.

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلالٌ مطلقٌ من لذائذ هذه الحياة وشهواتها، ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات وانتهاك الحرمات، فقد كان النبي ﷺ يجيع نفسه من غير عوزٍ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: «إنَّ رسول الله لم يمتلئ قط شبعًا، وربما بكيت رحمةً له مما أرى به من الجوع، فأمسح بطنه بيدي، وأقول: «نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك!» فيقول: «يا عائشة، إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم».

وكان يقول: «شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة.» وعلا عمر d ولده عبد الله بن عمر بالدرة، إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الثريد والشواء. وكان بعض الصالحين يعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويجففه في الشمس ثم

يأكله قائلا: «كسرةٌ وملحٌ حتى يتهيأ في الآخرة الشواء.» ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوذاب والكباب، ولا بالخل والزيت.

فهل كان واحدٌ من هؤلاء بَطِرًا بنعمة الله أو مُحرمًا ما حلل الله؟ لا، فما كل من أبغض حلالًا حرمه، ولا كل من أحب حرامًا حلله، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحلِّ النبيذ، فلما أريد عليه قال: «لو قُطعت إربًا إربًا ما حرمته، ولو قُطعت إربًا إربًا ما شربته». وعلم النبي ﷺ بحل الطلاق، ثم قال: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». بل لو تبينت لعلمت أنَّ قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها، والنفوس لا تنفر إلا مما حل لها، ولا تشتهي إلا ما حرم عليها.

فويلٌ لي من هؤلاء الناس! شركتهم في دنياهم فقالوا: شره طماعٌ، وصدفت لهم عنها فقالوا: زنديقٌ ملحدٌ فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون».

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد فتفصَّد جبينه عرقًا، واستسر حديثه حتى ما يكاد يبين، فرثيت له مما به، وأمرت برفع المائدة من بين يديه، وقدمت له مقترحه من الطعام. فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا، فأردت أن أرفه عليه ما ألمَّ به من الهم، فقلت له: «يا مولاي إنَّ للحيوان اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه من قبل، فقد ذهب كثيرٌ من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قومٌ

من الراحمين المحسنين، يأخذون أنفسهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة، فإذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل، أو يسوطها سوطًا عنيفًا، رفعوا إلى الحاكم أمره. أو رأوا حيوانًا هزيلًا أو مهيضًا حملوه إلى مكانٍ خاصٍ بمعالجة أمراض الحيوان، فعالجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلًا، وإلا قتلوه رحمةً به وإشفاقًا عليه».

قال: «لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى، ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال، وها نحن أولاء نرى كل يوم مريضًا يبلُّ بعد إشرافه، وبكاء الباكيات حوله، وصحيحًا يُخترم في اجتماع قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر، فهلَّا وكلوه إلى منيته تأتيه هادئةً مطمئنةً حيث يسوقها القدر إليه؟!

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم إلا مرائين مصانعين، وما هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم إلا حبالة من الحبائل نصبوها لاصطياد العقول واختتال النفوس، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا أن يقول الناس عنهم: إنهم رحموا الحيوان فأَحْرَى أن يرحموا الإنسان، فمثلهم كمثل المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالًا تذرعًا إلى البدرة حرامًا.

يا بَني آدم دعوا النوق في مراحها، والشاء في زروبها، والوحش في كناسه، والضب في جحره، والذئب في وجاره، والقطا في أفاحيصه،

ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها، ولا الحمام عن محاضنها، ولا اليعاسيب عن خلاياها، ولا الأسماك عن مسارحها، وجنبوها فخاخكم وشباككم وقتركم وزباكم ومداكم وشفاركم؛ فإن لها نفوسًا كنفوسكم، ووجدانًا كوجدانكم، ورجاء في الحياة كرجائكم، واعلموا أنَّ الله تعالى ما أغرى بعضكم ببعضٍ، ولا سلط قويكم على ضعيفكم، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن ضريتم بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها، وقطعتم إلى المتعة ما شئتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر، فارحموها ترحموا أنفسكم، واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم، إنكم إلى الرحمة محتاجون، وإلى الله راغبون».

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب، وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه، فشعرت أن سِنةً من النوم قد رنقت في عينيه، فانسللت من بين يديه وتركته في مضجعه على أن ألقاه غدًا.

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث، فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها، وتوسد أعشابها، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها، ويبسم للعصافير تنتقل بين أنجمها وأشجارها، ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها، فعرفت المدخل إلى قلبه، والوسيلة إلى سروره وغبطته، فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد، ليرفه عن نفسه ما ألَّم بها من الحزن والألم،

فخرجنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى، حتى وصلنا إلى وادٍ أفيح يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار، ويتراءى في ألوانٍ من النبات مشتبهاتٍ وغير مشتبهات، من هائجٍ وعميم، وبارضٍ وجميم وكروم وأعناب، وسنابل وأعشاب. وتفيضُ أرجاؤه بالجداول والغدران، والقنا والخلجان، مطرداتٍ ومنعطفات، ومجتمعات ومفترقات. يفضي أولاها إلى أخراها، ويتصل أقصاها بأدناها، ويعطف كبيرها على صغيرها، وقويها على ضعيفها، فكأنها صلالٌ رقشاء قد فرت من حر الظهيرة إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روابيه وأكماته، ومصاعده ومنحدراته؛ فهي تنقبض وتنبسط، وتنساب وتتمعج، وتقبل وتدبر، وتقوم وتقعد، وتتواثب وتتراجع، وتتواصل ثم تتقاطع. وكأن حفيف أوراقه، وخرير مائه، وغريد أطياره، وضجيج نواعيره، وعجيج سائمته، أنغامٌ مختلفات يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع، فيخيل إليه أنه هابطٌ من أبواب السماء. أو أن سكان الملأ فوق عروشهم يغنون، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون.

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه، وقد ملكت عليه مشاعره، وحيل بينه وبين نفسه، فجمد في مكانه كأنه نصبٌ من الأنصاب، ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه، فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول:

للمليك المذكرات عبيدٌ وكذاك المؤنثات إماء
فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثـ ـرة والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إليَّ وقال: «كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها؛ لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ، والمؤرخون يصانعون ويدهنون، أو من أفواه الفقهاء، والفقهاء تجارٌ يرتزقون لا هداةٌ يرشدون، أو من خطرات عقولهم، وقد أفسدها عليهم القائلون والكاتبون، والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها؛ لأنهم لا يعرفون الطريق إليها.» قلت: «وأين تجدها؟»

قال: «في هذه الأودية الفيحاء، تحت تلك القبة الزرقاء، بين ذلك الظل والماء.

هنا يرى الإنسان ربه في الغريسة يلقي بها غارسها في التربة، فإذا هي نبتةٌ زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزراع. ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة، التي لا تلبث أن تأخذ مكانها من مغرسها، حتى تصير نخلةً سحوقًا تملأ الأرض خيرًا بجذوعها وسعفها، وجريدها وقنواتها، وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها. ويراه في الكواكب الماثلة في السماء، والأسماك السابحة في الماء، والأجواء المملوءة بالهواء، والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، فيمتلئ قلبه يقينًا صافيًا رائقًا لا تعبث به

المناظرات، ولا تشوه جماله المجادلات، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر، ولا فقيه يلقنه الجدل، فلا دليل على الله غيره، ولا هادي إليه سواه.

هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب، والعشب يأكل التراب، والتراب يأكل السائمة، فيستحيل الجماد نباتًا، والنبات حيوانًا، والحيوان جمادًا، فيعلم أنَّ المواليد الثلاثة مادةٌ واحدة تتلون ذراتها، وتتشكل جواهرها. ويعلم أنَّ هذا الإنسان الفاخر بنفسه، والمدل بعظمته واقتداره ربما كان بالأمس صفيحةً ملقاةً على جانب قبرٍ، وربما يكون في الغداة جلدةً بالية في ذؤابة نعلٍ.

هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن تعصف بذورها، فيعلم أنَّ الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها، وأنَّ الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون، ولا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون.

هنا يرى الإنسان الشمس طالعةً من مشرقها مصفرة اللون، متقاربة الخطوات؛ مخافة أن تطير إليها رشاشةٌ سوداء من مآثم هذا العلم ومخازيه، ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة، فتنغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألمَّ به من تلك الأدران والأوحال. ويرى الليل مقبلًا يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه

ويربد شيئًا فشيئًا حتى يسود غضبًا على هذا المجتمع البشري، فيما يقترفه تحت ستاره من المفاسد والشرور، ولا يزال مادًّا يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداول بينه وبين النهار. ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمةً، لتنفس عن رفيقها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد، فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقًا وانفتاحًا؛ مخافة أن يصيبها سهمٌ نافذٌ من سهام الأشرار التي تتطاير يمنةً ويسرة، وصعودًا وهبوطًا، فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه.

هنا يرى الإنسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم، ويسمع صوتها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين، ولا خداع الخادعين، ولا يصد سمعه قرع النواقيس ولا صياح المؤذنين».

فقلت: «حسبك يا مولاي، فقد نال منك أجيج هذه الرمضاء، وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلًا أحسبه فلاح هذه الأرض، فامضِ بنا إليه علَّه ييسر لنا ظلةً نفيء إليها، وجرعة باردة نفثأ بها هذه الصارَّة». فمشينا إليه حتى بلغناه، فرأيناه مكبًّا على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها، وقد شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهام، فتصبب عرقًا حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على

جوانب القدر المضطرم. فحييناه بتحية حيا بأحسن منها، وأفضينا إليه بطلبتنا، فأشار بيده إلى كوخه، وكان منه على كثب. فإذا عريشٌ من عيدان القصب مسجج قد ارتفع فوقه سقفٌ من جذوع الأشجار، واعتمد على أُسَيْطِينة من اللبِن الأسود، وامتدت أمامه صفةٌ مستطيلة، واستدار به نؤيٌ يمنع عنه مسيل الماء، فدخلناه فلم نرَ فيه إلا رثة من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق للخبز اليبيس، وخلقانٍ من القمص والأبراد، وقدرٍ وأثفيةٍ، وجرةٍ مملوءة ماء، وحشيةً باليةٍ مفككة، تضطرب في جوفها حشوةٌ من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل، فشربنا حتى ارتوينا، وأخذنا من تلك الحشية مضجعنا. وما زلنا على حالنا تلك سكوتًا لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال ميزان النهار يقزل في مشيته، ويحمل فأسه على عاتقه، ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة. فجلس وجلس ولداه بين يديه، وأنشأ يلقي إلينا معاذيره، ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب، فعذرناه، ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي، وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان:

الشيخ: «من يملك هذه الأرض؟».

الفلاح: «هي لسيدي ومولاي - أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته - صاحب هذا القصر الذي تراه.» وأشار إلى قصرٍ فخيم يرفرف بأجنحته في هذه البقعة الخضراء، رفرفة الحمامة البيضاء في القبة الزرقاء.

الشيخ: «أراك تدعو له وتتمنى له الخير والسعادة، فلعلك سعيد بجواره مغتبط بمكانك منه، ولعله يمدك ببره وإحسانه ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه!».

الفلاح: «حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يوم أو يومين ممتطيًا فرسه الدهماء في ركبٍ من أصحابه وحاشيته مارًّا بهذه الأجمات الملتفة يتنزه ويتروَّح، ويطارد الثعالب والذئاب مطاردة الشجاع المستقتل، ثم يعود إلى قصره مسرورًا مغتبطًا بمصبحه وممساه».

الشيخ: «إنما أسألك عن أياديه عندك، وصنائعه لديك، لا عن منازهه وطرائده وملذاته وشهواته».

الفلاح: «وهل يوجد في باب النعم، جليلها ودقيقها، نعمة أجل قدرًا وأسنى قيمة من أن أكون عبدًا مملوكًا لسيد كهذا السيد رفيع الجاه جليل القدر واسع النعمة، تطأطئ بين يديه رءوس العظماء ويختلف إلى حضرته كبار الأمراء؟».

الشيخ: «أيها الرجل ما عن هذا أسألك، أسألك: هل يسلم عليك سيدك هذا إذا مر ببابك، أو يخلو بك أحيانًا ليتعرَّف همَّك، وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك؟».

الفلاح: «الحق أقول يا سيدي إني ما سمعت في حياتي بأعجب من سؤالك هذا، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي، أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر، أو يلامس بيده جسمه إلا

للتأديب والتهذيب؟ ولقد تمر بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوشب ما يملأ بطوننا، فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام أو إغفاله أمري ونهيي وزجري وتأديبي. وقد أعد لي - حفظه الله وأمتعني بدوام رعايته وعنايته - عصيًّا غلاظًا يتعهدني بها من حينٍ إلى حينٍ كلما نسيت أمرًا من أوامره، أو قصرت في رعاية غرضٍ من أغراضه، فأغتبط بذلك الاغتباط كله؛ لأني أعلم أني منه على ذكرٍ، وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله واطراحه وإلقاء حبله على غاربه».

الشيخ: «وأين أم هذين الولدين؟».

الفلاح: «ماتت - رحمها الله - في سبيل خدمة سيدها، فقد كنا يومًا نمتح على حافة بئر، فزلقت أقدامنا وانبتَّ بنا الحبل فسقطنا، أما هي فاستأثر الله بها، وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة، فما أسفت على شيءٍ أسفي على أن لم أكن قد لحقت بها، فأكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليترحم عليَّ كما ترحَّم عليها، ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها».

الشيخ: «ربما كنت قانعًا من إحسان سيدك إليك وعطفه عليك، بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها!».

الفلاح: «لا والله يا مولاي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعادته في قفيز بُرٍّ، أو حفنة تمر، إلا أن تسقط بين يدي تمرةٌ

أعلم أنه لا يأبه لها، فتكون قسمة بيني وبين ولدي، أو أحتطب من أطراف هذا الوادي بضعة أعوادٍ من الحطب أشعلها تحت قدري، وأستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه».

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتمني دمعةً تترجح في مقلتيه، فأشرت إليه بالقيام فقمنا، ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل، وقد نزل ستر الظلام فقلت: «أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة!»، قال: «ما نغص عليَّ يومي إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر نفسه، وسقوط همته، وذلة جانبه، وما أحسب إلا أن الظلم قد ألحَّ على نفسه حتى قتلها، وسلبها حسها ووجدانها، فأصبح لا يعرف لنفسه حياةً ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده، فهو لا يفرح إلا لفرحه، ولا يغتبط إلا باغتباطه، ويرضيه منه كل شيءٍ حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه، وتعبُّده له بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه، وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين».

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات:

يحسن مرأى لبني آدم ... وكلهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة ... لا تظلم الناس ولا تكذب

البيان

أعرف أديبًا من أفضل الأدباء في هذا البلد، المضطلعين باللغة وفنونها، الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها، إلا أنه لا يكتب كلمةً في صحيفةٍ ولا ينشر في الناس كتابًا، إلا أعجم كتابته وأبهمها، وتعمل فيها تعملًا يأخذ على القارئ عقله وفهمه، فلا يدري أيَّ سبيلٍ يأخذ بين مسالكها وشعابها، وكنت أحسبها غريزةً من غرائزه الغالبة عليه، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة، والملكة الرَّاسخة، فلا سبيل له إلى التخلُّص منها، والنزوع عنها. حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله إليه في بعض الشُّئون الخاصَّة وكتبه بتلك اللغة السَّهلة البسيطة التي يسمُّونها اللغة العادية، فأعجبت بأسلوبه في كتابه هذا إعجابًا كثيرًا، ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل، وعلمت أنَّ الرجل فصيح بفطرته، قادر على الإبانة عن أغراضه ومراميه كأفضل ما يقتدر مقتدر على ذلك، إلَّا أنه يتكلَّف الرِّكَّة والتعقيد في كتابته تكلُّفًا، ويأخذ نفسه أخذًا على ذلك. ولو أنه أرسل نفسه على سجيَّتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها كتابه هذا، لكان من أعظم الكُتَّاب شأنًا وأكثرهم نفعًا، وأرفعهم صوتًا في عالم الكتابة والأدب، ولكن هكذا قدِّر له أن يقضي بنفسه على نفسه.

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلِّفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها، وما أحسبها أفلتت من يده، ولا جاءت على هذه الصُّورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها والتدقيق في وضعها، فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه إنما يسأل عن الإجادة في الشعر، لا عن البراعة في النثر، وأنَّ الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب أمام قوَّة الشَّاعر، غير عالم أنه كاتب من أفصح الكتَّاب وأبينهم، ولو شاء لكان شاعرًا من أقدر الشعراء وأفضلهم، وأنه ما أحسن إلَّا حيث ظن الإساءة، ولا أساء إلا حيث ظن الإحسان.

ووالله لا أدري ما الذي يستفيده هؤلاء الأدباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية، وتكلُّف الإغراب والتعقيد فيها، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للنَّاس لا لأنفسهم، وأنَّ النَّاس – خصوصًا في هذا العصر؛ عصر المدنية والعمل والحركة والنشاط – أضنُّ بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن كوامن معانيه، ولم لا يؤثر أحدهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله، أو للشهرة والذكر، أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها، علمائها وجهلائها. وهل الشعر والكتابة إلا أحاديث سائرة يحادث بها الشُّعراء والكتَّاب

النَّاس ليفضوا إليهم بخواطر أفكارهم، وسوانح آرائهم، وخلجات نفوسهم، وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس ما يقول، وأن يجد بين يديه سامعًا مصغيًا، ومقبلًا محتفلًا؟

وأي فرق بين أن يجلس الرجل إلى جمع من أصدقائه ليقصَّ عليهم بعض القصص، أو يفضي إليهم ببعض الآراء، فيتلطف في تفهيمهم، وإيصال معانيه إلى نفوسهم، ويفتنُّ في اجتذاب ميولهم وعواطفهم، وبين أن يجلس إلى مكتبه ليبعث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم، ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى؟

ليس البيان ميدانًا يتبارى فيه اللُّغويون والحفَّاظ أيهم أكثر مادةً في اللغة، وأوسع اطلاعًا على مفرداتها وتراكيبها، وأقدر على استظهار نوادرها وشواذها، ومترادفها ومتواردها، ولا متحفًا لصور الأساليب وأنواع التراكيب، ولا مخزنًا لأحمال المجازات والاستعارات، وحقائب الشواهد والأمثال، فتلك أشياء خارجةٌ عن موضوع البيان وجوهره، إنما يعنى بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم، وواضعو كتب المترادفات، ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، أما البيان فهو تصوير المعنى القائم في النفس تصويرًا صادقا يمثله في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئًا. فإن عجز الشاعر أو الكاتب – مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه – عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية فهو إن شئت أعلم العلماء، أو أفضل الفضلاء، أو أذكى الأذكياء، ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب.

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني! وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر!

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون، ويقتطُّون من هضبته الشماء صخورًا صماء يضعونها عقبة في سبيل المدنية والحضارة؛ حتى صيروه عبئًا ثقيلًا على كواهل الناس وعواتقهم، فمله الكثير منهم، وبرموا به، وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شئون المجتمع وأحواله، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم، والأخذ بأسباب دنياهم.

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة ويتحذلقون، ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية، ويغالون في محاكاتها واحتذائها، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا، وينزلون على حكمهم فيما أرادوا، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حسابًا شديدًا على الكلمة الغريبة والمعنى المبتكر، ويقيمون المناحات السوداء على كل تشبيهٍ لم تعرفه العرب، وكل خيال لم يمرَّ بأذهانهم، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم، فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم، وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلائقهم، فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم، وشبه العامية في كتاباتهم، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها، لولا أن تداركها الله برحمته، فقيض لها هذا الفريق

العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوبًا وسطًا معتدلًا جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها، وبين تمثيل روح العصر وتصوير صورة الحياة. ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت، أو غلبت عليها العامية فاستحالت.

* * *

قال لي أحد الأدباء المتكلِّفين في معرض الاعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعِر الذي ينهجه في أسلوبه: أنت تعلم أن الناس في هذا البلد قد أَلِفوا من طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الإجلال والإعظام إلى كل أسلوب شعري أو كتابي معقدٍ غامضٍ، وإن تفهت معانيه وهانت أغراضه، وبعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة، وإن اشتملت على أشرف الأغراض وأبرع المعاني؛ أي إنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والسفولة، ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعاني وشرفها، وهي حالة طبيعيةٌ في جميع النفوس البشرية أن تزدري المبذول لها، وتستثني قيمة الممنوع عنها. وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر الحاضر فحسب، بل مع أدباء كل عصر وجيل؛ فهم يسمون البحتري وأبا نواس، والشريف الرضي وأمثالهم شعراء الألفاظ، ويسمون المتنبي، والمعري، وابن الرومي،

وأشباههم شعراء المعاني وليس بين الأولين والآخرين فرقٌ في جودة المعاني وشرفها، إلا أنَّ الأولين أمطروها على الناس وبعثروها تحت أقدامهم فهانت عليهم، وضن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم، وجلَّت في صدورهم. قال: ولقد عرضت السلعتين في سوق الأدب، فكتبت أتفه المعاني وأدونها في أخشن الأساليب وأوعرها فنفقت في تلك السوق نَفَاقًا عظيمًا، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها. وكتبت أشرف المعاني وأبرعها في ألطف الأساليب وأعذبها، فما أبِهَ لها إلا القليل من الناس، وربما لم يأبه لها أحد، فلم أرَ بدًّا من أن أنتهج لنفسي في الكتابة الخطة التي أعلم أنها أجدر بي وأجدى عليَّ.

فعجبت لرأيه هذا عجبًا شديدًا، وقلت له: أما هذا الذي تذكره فإني لا أعرفه إلا لفئة قليلةٍ من القراء فاسدة الذوق، لا يعبأ بها عابئ، وليس هذا رأي جمهور المتأدبين، بل ولا رأي العامة من أبناء هذه اللغة. وهب أنَّ الأمر كما تقول، فالأدب ليس سلعةً من السلع التجارية لا هم لصاحبها سوى أن يحتال لنَفاقها في سوقها. إنما الأدب فن شريف يجب أن يخلص له المتأدبون بأداء حقه والقيام على خدمته إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم. والأدباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم، فلا يَجْمُلُ بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالاتهم وفساد تصوراتهم. ولم أزل به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له، فحمدت الله على ذلك

* * *

ليس من الرأي ولا من المعقول أن ينظم الشعراء ويكتب الكتاب الرسائل في هذا العصر – عصر الحضارة والمدنية – وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف أكثر من العامية إلا قليلًا باللغة التي كان ينظم بها امرؤ القيس، وطرفة، والقطامي، والخطفي، ورؤبة، والعجاج، ويكتب بها الحجاج، وزياد، وعبد الملك بن مروان، والجاحظ، والمعري، في عصور العربية الأولى، فليس عصرنا كعصرهم، ولا جمهورنا كجمهورهم، وأحسب لو أنهم نشروا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بدٌّ من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم، أو يعودوا إلى مراقدهم من حيث جاءوا.

ليست الأساليب اللغوية دِينًا يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة، إنما هي أداة للفهم وطريق إليه، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئًا.

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها، ثم نكون أحرارًا بعد ذلك في التصور والتخيل واختيار الأسلوب الذي نريد.

يجب أن يَشفَّ اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب، حتى لا يرى الرائي بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر، وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرآة من الشأن في تمثيل الصور والمخائل.

يجب أن يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ، حتى إذا حسن الأول أفاض على الثاني جماله ورونقه، فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى، بل لا مفهوم للفظ الجميل إلا المعنى الجميل.

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها، ومقياس تقاس عليه، لوجب أن يكون قانونها العقلي أن يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده، فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم في نفسه. فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف - مهما صغر قدرها واتضع شأنها - أعود بالنفع على الأمة وأجدى عليها من حرفة القلم.

لا يبكِ شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه في الأمة، ولا يقض حياته ناعيًا عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية إليه، فالأمة قد ارتقت واستنارت، وأصبحت طمَّاحة متطلعة، لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرن على صفحة القرطاس بدون أن يطربها ويملك عواطفها، ولا من قلم الكاتب أن يسوِّد بياض الصحف بدون أن يثير لها أذهانها، ويغذِّي عقولها ومداركها، فإن كان لا بدَّ باكيًا فليبكِ على نفسه، ولينعِ عجزه وقصوره، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول.

إنني لا ألوم على الركاكة والفهاهة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم، فأظلمت أقلامهم - وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل

– ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ولم يمارسوا أدبها، ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفيةً ليس فيها مُمَيَّزٌ واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها، وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك. فهؤلاء جميعًا لا حول لنا فيهم ولا حيلة، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك، إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة واطَّلعوا على أدبها، وفهموا سر فصاحتها. وأنقم منهم عدولَهم عن المحجة في البيان إلى الجَمْجَمَةِ والغَمْغَمَةِ فيه، وأنعي عليهم نقص القادرين على التمام.

الناشئ الفقير

لي ولدٌ وحيدٌ في السابعة من عمره لا أستطيع على حبي إياه وافتتاني به أن أتركه من بعدي غنيًّا؛ لأني فقير، وما أنا بآسفٍ على ذلك ولا مبتئسٍ، لأني أرجو - بفضل الله وعونه ورحمته وإحسانه - أن أترك له ثروة من العقل والأدب، هي عندي خيرٌ ألف مرة من ثروة الفضة والذهب.

أحب أن ينشأ معتمدًا على نفسه في تحصيل رزقه وتكوين حياته لا على أي شيءٍ آخر، حتى على الثروة التي يتركها له أبوه، ومن نشأ هذا المنشأ وأَلِفَ ألا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه بيده نشأ عزوفًا عفيفًا مترفعًا لا يتطلع إلى ما في يد غيره، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان.

أحب أن ينشأ رجلًا، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل. وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة، ودافعٍ من الحاجة، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيمِ شأنها شرها وفضولًا، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته، وتقويم أَوَدِ حياته.

أحب أن يعيش فردًا من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة، يصارع العيش ويغالبه، ويزاحم العاملين بمنكبيه، ويفكر ويتروى، ويجرب ويختبر، ويقارن الأمور بأشباهها

ونظائرها، ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها، ويعثر مرةً وينهض أخرى، ويخطئ ويصيب أحيانًا، فمن لا يخطئ لا يصيب، ومن لا يعثر لا ينهض، حتى تستقيم له شئون حياته.

ذلك خير له من أن يجلس في شرفةٍ من شرف قصره مطلًّا على العاملين والمجاهدين يمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد روايةً تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل.

أحب أن يمر بجميع الطبقات، ويخالط جميع الناس، ويذوق مرارة العيش، ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء، وشقاء الأشقياء، ويسمع بأذنه أنات المتألمين، وزفرات المتوجعين؛ ليشكر الله على نعمته إن كان خيرًا منهم، ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم، ولتنمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة، فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم.

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم. فإنْ حاول يومًا أن يمد يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب، فعل ذلك متفضلًا ممتنًّا لا راحمًا ولا متألمًا.

والألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه،

بل معنى الإنسانية وروحها وجوهرها، فمن حُرِمَهُ حُرِمَ كُلَّ فضيلةٍ من فضائل النفس، وكل مكرمةٍ من مكرماتها، وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه بالإنسان الناطق.

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع، ويظمأ ليستعذب طعم الري، ويتعب ليشعر ببرد الراحة، ويسهر لينام ملءَ جفونه؛ أي إنني أحب له السعادة الحقيقة التي لا سعادة في الدنيا سواها.

وما السعادة في الدنيا إلا لمحاتٌ كلمحات البرق تخفق حينًا بعد حين في ظلمات الشقاء، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها. وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم، فلا يزالون يمعنون فيها ويتقلَّبون في جنباتها حتى يستنفدوها، فيستولي على عقولهم مرض السَّآمة والضجر، فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم التَّعِبُ من التَّعَبِ، ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان، وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهياتٍ غريبةٍ لا تتفق مع الطبيعة البشرية، ولا تدخل تحت حكمها تفريجًا لكربتهم، وتنفيسًا عن أنفسهم. وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم في ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارِّين من سجون السَّآمة والملل، يعالجون الداء بالداء، ويفرون من الموت إلى الموت.

أحب أن يكون غنيًّا بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الاصطلاحي؛ أي أن يكون مستغنيًا بنفسه عن غيره لا كثير المال والثراء. وما سُمِّيَ المال غنًى إلا باعتبار أنه وسيلةٌ إلى الغنى وطريق إليه، وهو اعتبار خطأٌ، ما في ذلك ريب؛ فإن أكثر الناس فقرًا إلى المال وأشدهم ولعًا بإحرازه وأعظمهم مخاطرةً بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء، أصحاب المال والثراء، وإنْ كان في الدنيا شيءٌ يسمى قناعة واعتدالًا فهو في جانب الفقراء المقِلِّين أكثر منه في جانب الأغنياء المكثرين. ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلةً إلى الحياة وذريعةً من ذرائعها حتى يكثر في يده، فإذا هو في نظره الحياة نفسها، يجمعه ولا يدري ماذا يريد منه، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ولا يخشى عقابه، ويستكثر منه وهو على ثقةٍ من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله فضلًا عن كثيره. وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون وتتغير نواميسه، فيرى الرءوس أذنابًا والأذناب رءوسًا، والوسائل غاياتٍ والغايات وسائل، فقل على عقله السلام.

لا أكره أن ينشأ ولدي غنيًّا، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفاته، ولكني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر.

أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتدادًا كثيرًا، ويقدره فوق قدره، ويعتبره الكمال الإنساني كله، فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه، وألا يجد من حوله من عُشرائه وخلطائه مرآة يرى فيها

هناته وعيوبه؛ لأن عشراء الأغنياء متملقون مداهنون، يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم.

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفسٍ مادية جامدة، لا تفهم من شئون الحياة غير المادة، ولا تُعنى بشيءٍ سواها، فيصبح رجلًا قاسيًا صلبًا، ميت النفس والعواطف، لا يرحم بائسًا، ولا يعطف على منكوب، ولا يرثي لأمةٍ ولا يبكي على وطن، ولا يشترك في شأنٍ من الشئون العامة خيرها وشرها، ولا يعنيه - ما دام راضيًا عن نفسه مغتبطًا بحظه - أسقطت السماء على الأرض أم بقيت في مكانها.

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب، ويزدري المواهب والعقول والفضائل والمزايا، فيصبح عار أمته وشنارها، ووصمتها الخالدة التي لا تزول، ومن أشرب قلبه حب المال ونزل من نفسه إلى قرارتها، لا يحترم غيره، ولا يقيم إلا لأربابه وزنًا، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة، بل لا حق لهم في الوجود.

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شيءٍ سواه، فيسقط في زواجه سقطةً يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه.

أخاف عليه إن ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته، فيتركه صغيرًا في أيدي الخدم،

وكبيرًا في أيدي عشراء السوء، فيصبح نكبته الكبرى في حياته، وعاره الدائم بعد مماته.

أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه مروعًا مذعورًا، خافق القلب، مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر، ويصعقه فوت الربح إن فاته، ويطير بنومه وهدوئه هبوط الأسعار، ونزول الأسهم، وتقلبات الأسواق، وخسران القضايا، ومنازعات الخصوم، والآفات السماوية، والجوائح الأرضية.

وما حزن الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقًا إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله، بأشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه، أو الذي كان يؤمِّل أن يتمم به مليونه فلم يُتَحْ له.

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعًا ولا يجد ما يسد به رمقهم، بأطول من ليلة الغني الذي يسقط إليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت، أو أن سهمًا من أسهمه قد نزل.

وحدثني من رأى بعينه من جُنَّ وهو واقف ينظر إلى قصرٍ من قصوره يحترق. وسمعت كثيرًا من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق، وكل أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلةٍ في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى.

أخاف عليه أن يصبح واحدًا من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم، وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مالٍ وجاه، فأندب حظي في قبري وأقرع السن على أن لم أكن فارقت هذه الحياة لا مال لي فيها ولا ولد.

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين، فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين: رأيت غلامًا من الوارثين جالسًا بإحدى الحانات يمرح في نعمائه، وآخر من المتشردين نائمًا تحت الرصيف على مقربةٍ منه يضطرب في بأسائه. أما الأول فقد كان جالسًا بين مائدتي شراب وقمار، تسلب الأولى عقله والأخرى ماله، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة في ميدانها، يضحكون لنكاته، ويؤمنون على أقواله، ويصدقون أكاذيبه، ويتحركون بحركته، ويسكنون بسكونه، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين، ويصيح صياح الثعالب. وأما الثاني فقد كان عاريًا إلا قليلًا يفتح إحدى عينيه من حينٍ إلى حينٍ كلما رنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم، ويضم ركبتيه إلى صدره كلما أحس صوت مركبة مارة بجانبه، وقد يبسط كفه أحيانًا وهو مغتمضٌ إن خُيِّل إليه أن يدًا تمتد إليه بالإحسان، ولا يد هناك ولا إحسان.

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتناقضين، فثارت في نفسي في تلك الساعة عاطفتان مختلفتان، عاطفة البغض والاحتقار للأول،

وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني. وقلت في نفسي: لو كان لي ولدٌ وكان لا بد له من أن يكون أحد هذين الغلامين: إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثرًا، أو المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمةً فلا يجدها، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين، على أن أراه بين فئة الوارثين؛ لأني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحمًا يحسن إليه ويستنقذه من شقائه، ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة، أما في الثانية فإني لا أرجو له شيئًا.

إنَّ للرحمة طيشًا كطيش القسوة والشدة، وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائبًا ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر، من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضنًّا بهم أن يزعج نفوسهم بشيء من تكليف الحياة وأعبائها، فإذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الأثقال التي يحملونها من مكانٍ إلى آخر، فهم ينقلونه من خزائنه شيئًا فشيئًا إلى خزائن الخمارين والمرابين والعاهرين حتى ينفد، فإذا فرغوا منه جلسوا في عرصاتهم المقفرة جِلسة الباكي الحزين، صفر الأكف، فارغي الجيوب، مطرقي الرءوس، لا حول لهم ولا حيلة، قد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم، وعدموا في عام واحدٍ أو عامين قرنًا كاملًا مجيدًا من أعلاه إلى أسفله، ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك.

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمةً حقيقية ويشفق عليهم إشفاقًا صحيحًا لرحمهم من هذا المصير المحزن، وضن بهم على هذا التراث المشئوم.

يقولون: إنَّ الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات، وأنا أقول: إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي، وألا ننخدع بصور الألفاظ وألوانها، علمنا أنَّ للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء بل أشد منها خطرًا وأعظم هولًا. فإن كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والشطار والعيارون وقاطعو الطرق، فبين الأغنياء المحتالون، والمزورون، والمغتصبون، والخائنون، والمداهنون، والممالئون، وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم، والتجار الذين يسرقون من الأمة في يوم واحدٍ باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلدً وعيَّاروه في شهرٍ كامل، والقُوَّام والأوصياء الذين يرثون التركات من دون وارثيهاٍ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها، والسماسرة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها.

على أنَّ جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر، بل جرائم الغنى، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكَلَبُهم عليها وحيازتها عن الفقراء، لما وجد في الأرض قاتلٌ ولا سارقٌ ولا قاطع طريق. ولا

يسرق السارق، ولا يسلب السالب، ولا يَلِصُّ اللص، إلا جزءًا من حقه الذي كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة، وللرحمة سبيل إلى الأفئدة والقلوب.

ليفتح الأغنياء المدارس، وليبنوا الملاجئ، ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة، فإن وجدوا بعد ذلك لصوصًا أو قتلةً أو مجرمين فليتهموا الفقر ولينعوا عليه جرائمه وآثامه.

لا أريد أن أقول: إنَّ الغنى علة فساد الأخلاق، وإنَّ الفقر علة صلاحها، ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء: إني رأيت كثيرًا من أبناء الفقراء ناجحين، ولم أرَ إلا قليلا من أبناء الأغنياء عاملين.

إنَّ العلوم والمعارف، والمخترعات والمكتشفات، والمدنية الحديثة بأجمعها، حسنة من حسنات الفقر، وثمرة من ثمراته، وما المداد الذي كتبت به المصنفات، ودونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم والأحزان، وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة، والأفئدة الحزينة، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيرة، والزوايا المهجورة، وما نبغ النابغون

من فلاسفة وعلماء، وحكماء وأدباء، إلا في مهود الفقر، وحجور الإملاق، ولولا الفقر ما كان الغنى، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة.

إنَّ المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون، لا يرحم أحدٌ أحدًا، ولا يلوي مقبل على مدبرٍ، يَعْدُونَ ويسرعون، ويتصادمون ويتخبطون، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض، كأنهم هاربون من معركة، أو مفلتون من مارستان، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم، وتموج موج البحر الزاخر يغرق فيه من يغرق وينجو من ينجو.

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية؟ ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في أدمغة الناس خاصتهم وعامتهم، علمائهم وجهلائهم؟ ولم هذه الحروب القائمة، والثورات الدائمة، والقتال المستحرُّ بين البشر جماعات وأفرادًا، وقبائل وشعوبًا، وممالك ودولًا؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد: هو أنَّ الناس يعتقدون اعتقادًا خطأ أنَّ المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به، فهم يسعون إليه، لا من أجل الجمع والادخار، كما يجب أن يكون، بل من أجل القوت وكفاف العيش، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع، فهم يتناهبون به ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة، ويسمون عملهم هذا تنازع

الحياة، أو تنازع البقاء، وما هو بالتنازع ولا التناظر، إنما هو التفاني والتناحر، والدم السائل، والعدوان الدائم، والشقاء الخالد.

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة، وأنَّ الإفراط في الطلب شقاء، كالتقصير فيه، وأنَّ سعادة العيش وهناءه وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريقٍ واحد، وهو الاعتدال.

***

الآن أستطيع غير خاشٍ لومًا ولا عتبًا أن أقضي للناشئ الفقير على الناشئ الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة، ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم؟! وأن أقول للناشئ الفقير: صبرًا يا بُنَيَّ وعزاءً، فإنك لم تخلق إلا للعمل، فاعمل واجتهد، ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك، ولا تحصد غير الذي زرعته يدك، فإن لم تجد معلمًا يعلمك فعلم نفسك، والزمن خير مؤدبٍ ومهذبٍ، وإن ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون، ففيها علوم الحياة بأجمعها، وإن كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبها غنمًا عظيمًا كما يعدها القعدة العاجزون، فها هو ذا فضاء الأرض أمامك فامشِ فيه، وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور القواطع التي ليس لها مثل عقلك وفطنتك، وحيلتك وقوتك، فإن الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعًا أو تهلك ظمأً، ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشئ الغني أسعد منك حالًا،

وأوفر حظًّا، وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره، فلكل نفس همومها وآلامها، وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها.

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي، ونفس هادئة، وقلب شريف، وأن تعمل بيدك فترى بعينيك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع، فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلحها بيده، وتعهدها بنفسه، وسقاها من عرق جبينه.

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا على جثة امرأةٍ في جبل المقطم، فظنوها قتيلةً أو منتحرةً، حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعًا.

تلك أول مرةٍ سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر، وهذا أول يومٍ سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديدَ.

لم تمت هذه المسكينة في مفازةٍ منقطعةٍ أو بيداء مجهلٍ فنفزع في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة، بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم، وفي ملتقى غاديهم برائحهم، ولا بد أنها مرت قبل موتها بكثيرٍ من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيبًا، ووقفت في طريق كثيرٍ من النَّاس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة تسد بها جوعتها، فما أقسى قلب الإنسان، وما أبعد الرحمة من فؤاده، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء!

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلبًا من الإنسان فذهبت إليه

تبثه شكواها، أو أنَّ الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه، وأحسب لو أنَّ الصخر فهم شكواها لأشكاها، ولو أنَّ الوحش أَلَمَّ بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها؛ لأني لا أعرف مخلوقًا على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان.

ألم يلتقِ بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها، وترقرق مدامعها، وذبول جسمها، فيعلم أنها جائعة فيرحمها؟!

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل، ويرى غدوها ورواحها حائرةً ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره؟!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت، فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفًا واحدًا زائدًا عن حاجته فيتصدَّق به عليها؟

اللهم لا هذا ولا ذاك، فالمال والحمد لله كثير، والخبز أكثر منه، ومواضع الخَلَّات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها السامعون، ولكن الأمة التي ألفت ألا تبذل معروفها إلا في مواقف المفاخرة والمكاثرة، والتي لا تفهم من معنى الإحسان إلا أنه الغُلُّ الثقيل الذي يوضع في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلبًا رحيمًا.

لقد كان الإحسان في مصر كثيرًا في عصر الاكتتابات والحفلات، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات

الجرائد تسجيلًا يشهده ثلاثة عشر مليونًا من النفوس، أما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولًا إلى نفسه، ومسئولًا أمام ربه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوي رحمه، ويتلمَّس مواضع خَلَّاتهم وحاجاتهم ليسدها، فها هم أولاء الفقراء يموتون جوعًا بين كثبان الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين.

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفًا تتبلغ به، أو درهمًا تبتاع به رغيفًا، فلم تفعل، وكان في استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها الفتيات الجائعات أعراضهن، فلم تفعل، لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها على أن تعيش بعارها، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعًا غير شرفائها وأعفائها!

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالًا قائمةً بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر، أو يحدث نفسه به، أو يكون عونًا لفاعليه عليه، فإن ساقته إليه شهوةٌ من شهوات النفس، أو نزوة من نزوات العقل، وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهناءه. ثم أصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم، وحركات وسكنات، وإشارات والتفاتات، لا دخل لها في جوهر النفس، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها؛ فأحسن الناس عند الناس أدبًا وأكرمهم خلقًا وأشرفهم مذهبًا من يكذب، على أن يكون كذبه سائغًا مهذبًا، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه، ومن يبغض الناس جميعًا بقلبه على أن يحبهم جميعًا بلسانه، ومن يقترف ما شاء من الجرائم والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وآثارها. وأفضل من هؤلاء جميعًا عندهم أولئك الذين برعوا في فن «الآداب العالية»؛ أي فن الرياء والنفاق، وتفوقوا في استظهار تلك الصور الجامدة التي تواضع عليها جماعة «الظرفاء» في التحية والسلام، واللقاء والفراق، والزيارة والاستزارة، والمجالسة والمنادمة، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالبًا إلى صغر النفس وإسفافها أكثر مما يرجع إلى أدبها وكمالها. فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة إلا لونها، فإذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها. ولا يعجبهم من الحسنة

إلا صورتها، فإذا لم تأتهم في الصورة التي تعجبهم وتروقهم عافوها وزهدوا فيها؛ أي إنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجرًا على اليد الخشنة التي تحمل بدرة، ويؤثرون كأس البلور المملوءة سمًّا على كأس الخزف المملوءة ماءً زلالًا.

ولقد سمعت بأذني من أخذ يعد لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعًا للوث صحائفهم، ثم ختم كلامه بقوله: وإني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل «ظريف»! وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاقرة والمقامرة، كأن جميع هذه الأشياء فضائل لا شك فيها، وكأن الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها. وما عهدنا ببعيد بذلك القاضي المصري الذي أجمع الناس في مصر منذ أيام على احتقاره وازدرائه، لا لأنه لعب القمار؛ بل لأنه تلاعب بأوراق اللعب في أحد أندية القمار، وسموه لصًا دنيئًا، والقمار لصوصيةٌ من أساسه إلى ذروته.

***

أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عملٌ واحد، ومركز واحد: أحدهما خير الناس، والآخر شر الناس، وإن كان الناس لا يرون رأيي فيهما.

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق والآداب ومزاولتها ليله ونهاره، فقرأ فيها فصول الصدق

والأمانة والعفة والزهد، والسماحة والنجدة والمروءة والكرم، وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين على أنفسهم، وافتتن بتلك الفضائل افتتانًا شديدًا، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف، وفهموا من معناه مثل ما فهم، وأخذوا منه بمثل الذي أخذ. فغضب في وجه الأشرار، وابتسم في وجه الأخيار، والأولون أكثر عددًا، وأعظم سلطةً وجاهًا، فسمي عند الفريقين شرسًا متوحشًا. وامتدح إحسان المحسن، وذم إساءة المسيء، والمحسنون في الدنيا قليلون، فسمي وقحًا بذيئًا - حتى بين المحسنين - وبذل معروفه للعاجز الخامل، ومنعه القادر النابه، فلم يشعر بمعروفه أحدٌ، فسمي بخيلًا، واعتبر الناسَ بقيمهم الأدبية، لا بمقاديرهم الدنيوية، فلقي الأغنياء والأشراف بمثل ما يلقى به العامة والدهماء، فسمي متكبرًا. وقال لمن جاءه يساومه في ذمته: إني أحبك ولكني أحب الحق أكثر منك، فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه.

أما الثاني فأقل سيئاته أنه لا يفي بوعد يعده، ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود، فلا يسميه أحد مخلافًا. وما رآه الناس في يوم من أيامه عاطفًا على بائس أو منكوب، ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين، ويستبكي لهم؛ فعد من الأجواد السمحاء. وكثيرًا ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم، ولكنه لا يزال

يمسح رءوسهم، ويحتضنهم إلى صدره في المجامع والمشاهد، كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين؛ فسمي الوصي الرحيم. ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم، إلا أنه يخلط جِدَّه بالهزل، ومرارته بالحلاوة، فلم يعرف الناس عنه شيئًا سوى أنه الماجن الظريف.

ذلك هو الأدب الذي أصبح في هذا العصر رأيًا عامًّا يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم، وعقلاؤهم وجهلاؤهم، ويعلمه الوالد ولده والأستاذ تلميذه، ويقتتلون اقتتالًا شديدًا على انتحاله والتجمل به، كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها، حتى تبدلت الصور، وانعكست الحقائق، وأصبح الرجل المخلص أحرج الناس بصدقه وإخلاصه صدرًا، وأضلهم بهما سبيلًا، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين؟ أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين؟ ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلةٍ منقطعة يقضي فيها بقية أيام حياته غريبًا شريدًا؟ أم يبرز للعيون فيموت همًّا وكمدًا؟

يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح، وأن يكون أدب الجوارح تابعًا له وأثرًا من آثاره، فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس صلاتهم وعلائقهم، وميزان قيمهم وأقدارهم، فليعترفوا أنَّ العالم كله مسرح تمثيلي، وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين.

إيقون الصغيرة

«مترجمة»

ماتت وكأنها لم تمت، ليس على وجهها أثر واحدٌ من آثار الآلام التي قاستها في مرضها، يحسبها الرائي نائمةً نومًا هادئًا لذيذًا، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة، ويرى هبوط صدرها وارتفاعه.

أين صفرة الموت ونحوله؟ أين آلام النزع وشدائده؟ أين الغضون التي خلفتها الأوجاع فوق جبينها، والدوائر الزرقاء التي رسمتها حول جفنيها؟

لقد مات كل ذلك بموتها، فعاد لها رونقها وبهاؤها، وأصبحت كأنما قد خلقت الساعة ولما تنبعث الروح في جسدها.

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسةً منذ أيام قلائل أمام المدفأة باسمةً مطمئنة تلاعب هرتها، وبهذا الفم الأرجواني القاني كانت تغني أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة، وبهاتين اليدين البيضاوين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ، أما اليوم فقد انقضى ذلك كله؛ لأن حياتها قد انقضت.

آخر كلمةٍ نطقت بها قبل موتها: «سأموت الساعة فائتوني بعصفوري أودعه!» فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها،

فظلت تنظر إليه باسمه متطلقةً، وظل العصفور يلعب ويغرد تغريدًا شجيًّا، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت.

وهنا وقف الشيخ الذي تبناها بجانب فراشها واجمًا حزينًا، مشرَّد اللب، ذاهل العقل، ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته، وسند حياته، فأخذها ووضعها على صدره، كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية في قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه. وظل على حاله تلك هنيهة، ثم التفت فجأة إلى أصدقائه وقال لهم: ها هي ذي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها شيئًا فشيئًا، فنظروا إليه آسفين محزونين، ثم نكسوا أبصارهم، وأسبلوا مدامعهم، فظل يدير بينهم عيونًا حائرةً، ويتنقل بنظراته هاهنا وهاهنا، كأنما يسألهم المعونة على أمره، ومن ذا الذي يعين على القدر، أو يعترض سهم المنية القاتل دون رميته؟

وما هي إلا لحظة حتى شعر أن يدها تجذب يده، فانتفض وحنا عليها، فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمةً كانت فيها نفسها.

إنا لله وإنا إليه راجعون، ماتت إيفون الصغيرة! ماتت الطفلة الوديعة الجميلة! ماتت الفتاة الرزينة الصابرة! في سبيل الله نجمٌ تلألأ في سماء الحياة لحظة ثم هوى، وغصنٌ أزهر في روض المنى ساعةً ثم ذوى، وقدح من البلور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر، وعقدٌ من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه حتى انتثر.

هذه الغرف التي طالما أنارتها بابتساماتها حتى في الساعة التي تختفي فيها جميع الابتسامات، والحديقة التي كانت تقضي فيها كل يوم بضع ساعاتٍ من ليلها أو نهارها تلاعب أطيارها، وتقطف أزهارها، وتتعهد أشجارها، والمماشي التي كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتًا ومرجانًا، قد خلت جميعها منها، وهيهات أن يسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم.

كانت إيفون جميلة الخلق، طيبة النفس، نقية الضمير، تحب الأحياء جميعهم، ناطقهم وصامتهم، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز. ولا تتودد إلى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وسجرائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى في حياته. وما عَلِموها قط اختلفت مع فتًى أو فتاة من تلاميذ مدرستها؛ لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها، والخبيث بعفوها وصفحها.

وهي وإن لم تكن تعلم أنها لقيطةٌ فإن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولهما وانكسارهما ولمعانهما الذي يشبه لمعان الدمع الرقراق، يخيل إليه أنها قد ألهمت ما كتمه الناس عنها، وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش في بيت أبيها بوصاية جدِّها كما كانوا يقولون لها، بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئًا. وكانت لا تزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة حلوة هي الرقية التي كانت تفتح بها أقفال القلوب، ثم تنزل فيما

تشاء منها المنزلة التي تريدها. ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التي يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف.

لذلك عجل الموت إليها؛ لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا طويلًا على ظهر الأرض.

دقت أجراس الكنيسة تنعاها فلم تسمعها، ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرها؛ شوقًا ولهفة كما كان شأنها في حياتها. ثم جاءت ساعة الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركنٍ من أركانها، ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير. فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها، والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها، والنساء اللواتي كن يحببنها من أجل حبها أبناءهن. وبكاها أكثر من هؤلاء جميعًا ذلك الشيخ المسكين؛ لأنها كانت كل دنياه، فخسرها في ساعة واحدة.

وظل كثيرٌ من الوقوف يردد ذكراها، فيقول أحدهم: طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسةً وحدها وبيدها الكتاب المقدس تتلو آياته. ويقول الآخر: لقد دخلت الكنيسة ليلةً فرأيتها هائمةً وحدها في الظلام الحالك تحت هذه الأقبية، فعجبت لصلاحها وتقواها. وتقول امرأة: لقد عثرت ابنتي يومًا من الأيام في منصرفها من مدرستها ببعض الأحجار عثرة برحت بها، فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل. وتقول أخرى: لقد كنت أراها

تمر كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفًا من طعامها، ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها.

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن، فعلت الأصوات بالبكاء، ثم غَيَّبُوها في قبرها وحثَوا عليها التراب، وكان الليل قد أظلَّ المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب، فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون:

وا رحمتاه لها، لقد خرجت من الدنيا غريبةً كما وفدت إليها.

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أعلنت هذه الحرب - قبحها الله وقبح كل ما تأتي به - ألا أكتب كلمةً في صحيفةٍ سيارةٍ في شأنٍ من الشئون العامة خيرها وشرها حتى ينقضي أجلها. وأن أتركَ هذا القلم هادئًا مطمئنًّا في مرقده مدرجًا في ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت، حتى يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يراد منه. ولكن نازلًا نزل بهذا المجتمع المصري منذ عام أو عامين لم أحفل به في مبدئه ولم ألقِ له بالًا، وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومها أن تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الإلهي فتنقشع، ولكن ها قد مضى العام والعامان وهو باقٍ في مكانه لا يتحول ولا يتحلحل، بل تزداد قدمه على الأيام ثباتًا ورسوخًا، وأحسبه سيبقى في مستقبل أيامه أضعاف ما بقي في ماضيها إن لم نُثِر عليه - معشرَ الكُتَّاب - حربًا شعواء تهز جدرانه هزًّا، وتدكه دكًّا، وتلحق أعاليه بأسافله.

لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبالٍ بتلك الألِيَّة التي كنت آليتها، فلعل أصدقائي من أفاضل الكتاب يساعدونني في هذا الشأن الذي إن عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غدًا.

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية، وما هي في شيء من الهزل ولا الجد، ولا علاقة

لها بالتمثيل والتصوير، ولا بأي فن من الفنون الأدبية، فأقبل عليها الناس إقبالًا عظيمًا، وأغرموا بها غرامًا شديدًا. فليقبلوا عليها ما شاءوا، وليفتتنوا بها ما أرادوا، ولكنَّ فريقًا واحدًا من الأمة هو الذي نضن به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمه، أو تظلل سماؤها رأسه، لأنا نضن به على كل منقصةٍ في العالم تزري به، أو تنال من كرامته.

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشرَ الطلبة المصريين إخوتنا وأبناءنا، وعنوان مجدنا وشرفنا، وصورة وجودنا وحياتنا، ومناط أمانينا وآمالنا. فائذنوا لكاتب من كتابكم، وصديقٍ من أصدقائكم، أن يحادثكم قليلًا في هذا الشأن كما يحادث الأب ولَده، أو الأخ أخاه، لا قاسيًا ولا متجبرًا، بل عاتبًا متلطفًا. وأمله عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم، وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم.

الحقَّ أقول: إنَّ الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم فلا أدري كيف أحدثكم، ولا ماذا أقول لكم؟

أأعظكم في أمرٍ أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم؟ أو أدعوكم إلى اجتناب سيئةٍ لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم ترزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها أو ماضيه؟ أو أقول لكم: إنَّ هذه الأماكن التي تطؤها أقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف، ومدافن الفضائل

والأخلاق، ومصارع الأعراض والحرمات؟ وهل غاب ذلك عن علم أحدٍ منكم فأُعلمكم منه ما لا تعلمون؟!

لا يجهل أحدٌ منكم شيئًا مما أقول، ولكنه الشباب ما زال يغري الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة، فيمضي إليها قدمًا، لا يجهل مكان الخطر منها، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومناورتها حتى يتردى فيها، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم.

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتتنون بها وتتهافتون عليها حسنةً تغتفر سيئة، أو جمالًا يفي بقبح، أو خيرًا يعزي عن شر، فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظًّا قليلًا من سلامة الذوق أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر إليه، ومُلَحها ثقيلةٌ مستبشعة، لو نطق بها ناطقٌ في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجوه الجالسين حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترقرقة في شفاههم ما يذيبه حياءً وخجلًا، وأناشيدها سوقيةٌ مبتذلة في موضوعها، وصورة أدائها لا يطرب لمثلها إلا أصحاب الأذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات وضجيج الباعة في الأسواق، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك؟

بقي فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا،

والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والخدم والأكارين وأمثالهم.

بل بقي ما هو شر من هذا جميعه، وهو تمثيل الشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا، وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخى على مثلها الستور، وتقام من حولها الدعائم والجدران.

فلو أنَّ غريبًا وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه شيئًا، فذهب إلى مكانٍ من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلةً في مسارحها الوطنية، لقضى عليها للنظرة الأولى بأنها أحط الأمم وأدناها. ذلك إلى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم، وجمل الفحش والهجر التي لا يطرق أذنه مثلها في موقفٍ من مواقف حياته، أو مشهدٍ من مشاهدها، إلا إذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يومًا من الأيام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل إلى «عرب اليسار» أو «عشش الترجمان» فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين.

ولقد قال لي أحد الأصدقاء الظرفاء مرة: إنَّ شتائم «أم شولح» قد انتقلت إلى بيتي ولا أعرف كيف انتقلت إليه، فإني أسمع الكثير منها منذ أيام يتردد في أفواه الأطفال هازلين، وفي أفواه الخدم جادين.

أتدرون أيها الأصدقاء من هم أولئك الذين يسمون أنفسهم ممثلين، ويسمون ما يهذون به في مسارحهم روايات، والذين يدعونكم - معشر المتعلمين الراقين - إلى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون؟

لو أنَّ جماعة من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرادين، وجماعاتٍ غيرهم من الرمالين والمداحين، والصفاعين والبهلوانية، والحواة والرقاة، وبقية السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاجين صارخين فلا نلقي لهم بالًا، ولا نعيرهم أذنًا - اتفقوا فيما بينهم على أن يكوِّنوا جماعة واحدة تعمل يدًا واحدة في مكان واحد، لكانوا هم بعينهم جوق كشكش، والبربري، وشرفنطح، لا فرق بينهم وبينهم سوى أنَّ أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة، ويجتزئون بالشربة، وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم ونتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الإتاوة المضروبة علينا.

وألطف كلمةٍ سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين: «كان الشر مفرقًا في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد».

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء - وأنتم عيون الأمة اليقظة، وعقولها المفكرة - أن تنخدعوا بألاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوها بأيديكم إلى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لها، ولا يمتون إليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف

أو الخلق؟ وها هم أولاء نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بائسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم ما يقيمون به أَوَدَ عيشهم، أو يعينهم على ما هم بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه.

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي الشريف في مسارح أبيض ورشدي وعكاشة وأمثالهم إن كنتم أنتم لا تذهبون إليها؟

ومن هو أولى بها من بعدكم إن قطعتم صلتكم بها؟

أيعجبكم ألَّا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين، فإذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص كشكش والبربري وشرفنطح وأمثالها راضين عن مقامكم فيها، مغتبطين بسفاسفها وهذياناتها؟!

ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان – مشهدكم في الأجواق الهزلية الساقطة، ومشهد العامة والسوقة في الأجواق الجدية الشريفة – أنَّ الأمة المصرية أمة غريبة الشأن، يفسدها العلم ويصلحها الجهل؟ أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيه فيقول: ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء، موفورا لها حظها من الأخلاق والآداب؛ فذلك خير لها من علم يهوي بها في مهواة الشقاء والعار.

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد، وضروب السماحة والوقاحة، فلم أرَ بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيدًا ولا أسمج وجها من هؤلاء القوم.

إنهم يحاولون دائمًا أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجدِّ، وهو وإن كان ثوبًا شفافًا ينم عما وراءه، إلا أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول في سلك المخدَّرات المتحجبات.

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل، ولا يتركون مفسدةً من المفاسد ولا رذيلةً من الرذائل إلا ويلصقونها به. وينشدون مختلف الأناشيد في السخرية بشكله، والهزء بصفاته وأعماله، ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الأناشيد: «ما دام بلادنا زراعية، حبوا الفلاح إن كنتوا تحبوا وطنكم».

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء، وينقمون على المصري تبديد أمواله في سبيل شهواته. وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات وتلقى هذه الأقوال!

ويهدمون اللغة العربية هدمًا بهذه اللهجة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم، وينظمون بها أناشيدهم، وينشرونها في كل مكان، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين. ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحماتها، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة: «مالها لغتنا العربية، آل همجية، يادي المصيبة يادي العار، فشر دي لغة المدنية، اتمسكوا بها صغار وكبار».

ولا يستحيون أن يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم: «دا أنا أبيع هدومي عشان بوسة، من خدك القشطة يا ملبن، يا حلوة زي البسبوسة، يا مهلبية تمام وأحسن»، وبين قولهم: «مصر يحميك ربك، ما تشوفي إلا أيام سعدك»؛ أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات «الوطنية» و«حب وطنك» و«مت في سبيل الأوطان» وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في أفواههم إلا أنهم يعتقدون أنَّ المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغًا لا يبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات.

لا أرى لكم – معشر الطلبة المصريين – أمام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا إلا أن ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب، وشرح مضارها وسيئاتها لهم، فإن امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعًا أنَّ الدخول إلى تلك الأماكن عارٌ يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه.

نحن في حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب. وأنَّ في نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصافِّ الأمم العظيمة، ومقياس عظمة الأمم عند العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأي شيءٍ غير ذلك. فإن

فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم، فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا.

إنكم لا تذهبون في الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم، بل يذهب إليها معكم إخوانكم وأخواتكم، وبقية أفراد أسركم؛ لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم، وتروون لهم ما سمعتم، فكأن سكان البلد جميعًا رجالًا ونساء، كبارًا وصغارًا، يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة. فهل يستطيع متصورٌ أن يتصور خطرًا على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر؟

إنني لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط، بل من أجل إخوتكم وأخواتكم اليوم، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غدًا، ومن أجل مستقبل الأمة المصرية كلها، الذي أعتقد أنه أمانة في أيديكم، ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم، وشرف ضمائركم.

اهدموا هذه الأماكن هدمًا بالإعراض عنها واحتقارها، ثم قفوا بعدُ على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين: ها قد نجت الأمة من خطر عظيم، وها نحن أولاء قد قمنا جميعًا بالواجب علينا لوطننا.

الشيخ علي يوسف

هكذا تقوم القيامة، وهكذا ينفخ في الصور، وهكذا تطوى السماء طي السجل للكتاب.

أفيما بين يوم وليلةٍ يصبح هذا الرجل - الذي كان ملء الأفئدة والصدور، وملء الأسماعِ والأبصار، وملء الأرجاء والأجواء - جثة ضاوية نحيلةً، مدرجةً في كفنٍ، ملحدةً في مهوًى من باطن الأرض سحيق؟

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت! تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها، وتتراكم السحب فوقها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة، وتعرى الأشجار عن أوراقها ثم تعود إلى جمالها مخضرة حينما تهب عليها نسمات الربيع، وينام الأحياء في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري وعبثت أشعته بأهداب جفونهم، قاموا من مراقدهم وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر، ولا يؤمل أوبته آمل، فكأن ما صار إليه «العدم الذي لم يسبقه وجودٌ».

اللهم إنا نعلم أنَّ الموت غاية كل حيٍّ، وأنَّ مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهامًا طائشةً، ولا نياقًا عشواء، وأنَّ ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في التربة التي نبتت فيها أشواك الموت، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء، ولا قلوبنا من الجزع

إذا فارقنا عزيزٌ علينا؛ لأن ساحة الصبر التي منحتنا أضيق من أن تسع نازلة البلاء الذي ابتليتنا، فاغفر اللهم لنا جزعنا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين.

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقةٍ لا نجد فيها ظلًّا نستظل به، ولا أكمة نأوي إليها، وأنَّ الصديق الذي نعثر به في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي ننتهي إليها في تلك الصحراء بعد الأين والكلال، وطول السير والسرى، فنترامى في ظلالها الوارفة هانئين مغتبطين، فإذا هبت ريحٌ عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء، وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فإنا لا نجد بدًّا من البكاء والجزع؛ لأن من الشقاء ما لا يستطاع احتماله ولا يطاق تجرع كأسه.

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب، والنجم المتلألئ الذي كنا نتنوره من حينٍ إلى حين في هذه السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها. فنحن إن بكيناه فإنما نبكي الأمل الذاهب، والسعادة الراحلة، والحياة الطيبة، ومن هو الأولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا!

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين: ميت الأمس الشيخ محمد عبده، وميت اليوم الشيخ علي يوسف، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكنافها. يمسكها الأول أن تزل بها مزالق

المدنية الخالبة فيذهب دينها، ويمسكها الثاني أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها. واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحدًا، فويل للأمة في دينها، وويل لها في جامعتها.

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الأمة كثيرٌ، ولكن الرجال قليل.

إنما ينفع الأمة ويضطلع بخطوبها ويحمل أعباءها على عاتقه، الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها، فيقوم لها بكل ما تريد، ويسعى لها سعي الكادح المجد، ويرحم صغيرها، ويحنو على كبيرها، ويحتمل مغارمها، ويغتفر عبث أطفالها وجهل شيوخها. ويرى لها في كل شأن من شئونها خيرًا مما ترى لنفسها، أرضاها ذلك أم أغضبها، من حيث لا يمن عليها بذلك، ولا يطلب عندها جزاءً ولا أجرًا. بل من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه من آلام الحياة، وما يعالج من شدائدها في سبيلها.

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال.

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه؛ لأن الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكانًا، وأدق مسلكًا، من أن تتناولها النظرة الطائرة، ولأنه كان مخلصًا متحنثًا، يعمل في سره

أكثر مما يعمل في علانيته، ثم لا يَدُلُّ بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه.

رأيته في حادثة الأزهر - في تلك الأيام التي كان يظن فيها كثيرٌ من الناس أنه حرب على الأزهر والأزهريين - يقضي كثيرًا من لياليه مترددًا على أبواب القائمين بالأمر ضارعًا إليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم، قائلًا عنهم ما كان يقوله النبي ﷺ عن فئة حنين: «اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الأرض أبدًا» فلا يقف في سبيله إلا حماقة أولئك الذين كان يظن المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم.

ورأيته يضم إلى كنفه كثيرًا من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة «عبد الحميد» وتنكر لهم الناس جميعًا، خصوصًا أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم، ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم، وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له ما لا يستطاع احتماله، فلم يبالِ بشيء من ذلك.

ورأيت كثيرًا من أعدائه الذين كانوا في بعض أيام حياتهم حربًا عليه وشقاءً له يعودون إلى حظيرته واحدًا بعد آخر يستغفرونه، فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء، كأنما كانوا معه على ميعاد.

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقدًا ولا واجدًا، ولا منتقمًا، ولا طالبًا بثأر، ولا ذائدًا عن نفسه إلا في الساعة التي يعلم فيها

أن قد جَدَّ الجِدُّ، وأن قد أصبح عِرضه وشرفه على خطر. ولم أرَ سائلًا دخل إليه يشكو حاجةً من الحاج صادقًا كان فيها أم كاذبًا، ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه إلا أعانه عليها ما وجد إلى ذلك سبيلًا، رحمة وإشفاقًا، لا رياء ونفاقًا. وكان يرى الرأي ويرى الناسُ جميعًا غيرَه فلا يثنيه عنه ثانٍ حتى ينحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل، فإذا هو مصيب والناس جميعًا مخطئون.

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك، وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذه الدنيا سرًّا كامنًا بين أحناء ضلوعك، لا يكتنهها ولا يستشف باطنها إلا قليلٌ من الناس. فما رآها الناس جميعًا رأي العين إلا وهي طائرة في جو السماء إلى ربها. وكذلك شأن هذه الأمة البائسة المحدودة، لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم إلا وهم ذاهبون إلى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم. فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي يجهل أنَّ في أرضها كنزًا مخبوءًا، حتى إذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون.

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها. بل كنت أفضل من الحقيقة؛ لأن الحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، أما أنت فكنت تخدم أصدقاءك وأعداءك. أما الأولون؛ فلأنك كنت تحسن إليهم بجاهك أو بمالك أو برأيك. وأما

الآخرون؛ فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عِرضك وشرفك، فويل للفريقين معًا من بعدك! وكنت القطب الذي تدور حوله رحى الأقلام في هذا البلد، فقد كانت وظيفة الكتاب أن يشرحوا آراءك، أو يفسروا كلماتك، أو يكتنهوا مقاصدك، أو يوافقوك أو يخالفوك، أو يمدحوك أو يذموك. فإن كتبوا في شأنٍ من الشئون غير هذا فتروا واستبردوا. فواضيعة الأقلام، وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك! وكنت العصمة التي تعتصم بها الأمة في مواقف بؤسها وشقائها، ومواطن خطوبها وكروبها، وما أحسب إلا أنَّ الدهر مدخر لها من ذلك في مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها في ماضيها، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم!

أيها الراحل الكريم: لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبيَّ بقيةً من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذي أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدرٌ أبعدني عن موطنك في آخر أيام حياتك، فأحرمني جلسة أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمةٍ من كلماتك، وأرى آخر نظرةٍ من نظراتك. وحال بيني وبين خطوةٍ أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من الخطوات الواسعات، ووقفةٍ أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك أول دمعةٍ يذرفها الباكون عليك، فلئن بكيت موتك يومًا فسأبكي حرماني وداعك أيامًا طوالًا حتى يجمع الله بيني وبينك.

العظمة

إن رأيت شاعرًا من الشعراء، أو عالمًا من العلماء، أو نبيلًا في قومه، أو داعيًا في أمته، قد انقسم الناس في النظر إليه وفي تقدير منزلته انقسامًا عظيمًا، وانفرجت مسافة الخُلف بينهم في شأنه، فافتتن بحبه قومٌ حتى رفعوه إلى رتبة الملك، ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشيطان، فاعلم أنه رجل عظيم.

العظمة أمرٌ وراء العلم والشعر، والإمارة والوزارة، والثروة والجاه؛ فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون، والعظماء منهم قليلون، وإنما هي قوةٌ روحية موهوبة غير مكتسبةٍ تملأ نفس صاحبها شعورًا بأنه رجل غريبٌ في نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غرار الرجال، ولا مقدود على مثالهم، ولا داخل في كلية من كليتهم العامة، فإذا نزلت نفسه من نفسه هذه المنزلة أصبح لا ينظر إلى شيءٍ من الأشياء بعين غير عينه، ولا يسمع بأذن غير أذنه، ولا يمشي في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه، ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأن صاحبه سلطانًا عليه في رأي أو فكرٍ أو مشايعة لمذهب أو مناصبةٍ لطريقةٍ، بل يرى – لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم – أنَّ حقًّا على الناس جميعًا أن يستقيدوا له،

وينزلوا على حكمه ويترسموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه، فترى جميع أعماله وآثاره غريبةً نادرةً بين آثار الناس وأعمالهم، تبهر العيون، وتدهش الأنظار، وتملأ القلوب هيبةً وروعةً. فإن كان شاعرًا كان مبتكرًا في معانيه أو طريقته، أو كاتبًا أخذ على النفوس مشاعرها وأهواءها، أو فقيهًا هدم من المذاهب قديمًا وبنى جديدًا، أو ملكًا شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملكٌ سواه، أو وزيرًا ساس أمته بسياسةٍ جديدة لا عهد لهم بمثلها من قبل، أو قائدًا ضرب الضربة البكر التي ترن في مسمع الجوزاء.

تلك هي العظمة، وهذا هو الرجل، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم، ومعترك أنظارهم وأفهامهم، ومثار الخلف والشقاق بينهم في استكناه أمره، وتقدير منزلته. فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريبٍ والافتتان بكل جديد، حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتتان بأقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، والإغراق في حبه، والمشايعة له، والسير بعجائبه وغرائبه في كل صقع ونادٍ. فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقَريته ونبوغه موقعًا غير جميلٍ، فلا يجدون لهم بدًّا من مقابلة الإغراق في حبه بالإغراق في بغضه، على قاعدة المشادة والمعاندة. وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها في يده، وهو واقف بينهم يدير أنظاره

فيهم هانئًا مغتبطًا، لا يحزن ولا يبتئس؛ لأنه يعلم أنَّ جميع هذه الأصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته.

لا أريد أن أقول: إنَّ الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط. فربما كان من هو أضعف منه قوةً وأخمل ذكرًا أسدَّ منه رأيًا وأصدق نظرًا، وإنما أريد أن أقول: إنَّ أحدًا من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب، وعقول المفكرين، وألسنة الناطقين، وقلوب المحبين والمبغضين، إلا الرجل العظيم.

أحب عليًّا قومٌ حتى كفروا بحبه، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه. وسمى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين، وأنكر بعضهم صحبتهما وإخلاصهما. وعاش محيي الدين بن العربي بين فئةٍ تراه قطب الأولياء، وأخرى تراه شيخ الملحدين. واغتبط فريقٌ من المسلمين بابن رشدٍ فسمَّوه فيلسوف الإسلام، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقًا في المسجد الجامع. وسمى قوم صاحب كتاب «الإحياء» حجة الإسلام، ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح. وعاش المعري بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه، يلثم الأولون مواطئ نعاله، ويسحبه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة. وشرب سقراط كأس السم بين أفواهٍ باسمةٍ شماتةً به، وعيون دامعةٍ حزنًا عليه. وجرت الأقلام بمدح المتنبي تارةً فإذا هو سيد الشعراء، وبذمِّه أخرى فإذا هو أكبر المتكلفين. ورفع قومٌ شكسبير إلى مرتبة

الكمال الإنساني، فقالوا: نابغة الدهر، وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة، فقالوا: المنتحل الكذاب. وافتتن المفتتنون بنابليون الأول فَعَلَوا به إلى رتبة الأنبياء، وتنكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في سلك الحمقى والممرورين. وذاق كل من لوثر وكالفين وغليليو وفولتير ونيتشه وتولستوي كأسي الحب والبغض في حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما. وما انقسم الناس في هذا البلد في هذا العصر في شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين، ومحمد عبده، وسعد زغلول، ومصطفى كامل، وعلي يوسف، وقاسم أمين.

وما كان واحد من هؤلاء في المنزلة التي يرفعه إليها المغرقون في حبه، أو ينزل به الغالون في بغضه، ولكنهم كانوا قومًا عظماء فانقسم الناس في شأنهم، وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم إلا في شأن الرجل العظيم.

ليس معنى الوجود في الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقًا يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحده، ثم ينزلق فيه انزلاقًا من حيث لا تراه عينٌ ولا تسمع دبيبه أذن حتى يبلغ نهايته - كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الأرض - وإنما الوجود قرع الأسماع، واجتذاب الأنظار، وتحريك أوتار القلوب، واستثارة الألسنة الصامتة، وتحريك الأقلام الراقدة، وتأريث نار الحب في نفوس الأخيار، وجمرة البغض في قلوب الأشرار. فعظماء

الرجال أطول الناس أعمارًا وإن قصرت حياتهم، وأعظمهم حظًّا في الوجود وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم.

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل أحجار هيكلها على رءوسهم هادموها وبُناتها، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الأصدقاء، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيدٍ واحدٍ فاعلم أنَّ العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعًا.

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم، فلا يزال ذلك القصر ثابتًا في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا في مكانهما، فإذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها، فسقط هو بسقوطهما.

لا يعجبنك أن يتفق الناس جميعًا على حبك؛ لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره، ثم يقعي على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل، يضربونه فيصطبر لهم، ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلبًا لرضاهم، ويهتفون به فيقترب، ويزجرونه فيزدجر.

ولا يعجبنك أن يتفقوا على بغضك؛ لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الأشرار الذين لا يحبون أحدًا من الناس فلا يحبهم من الناس أحدٌ.

وليعجبنك أن يختلفوا في شأنك، وينقسموا في أمرك، ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب، فتلك آية العظمة، وذلك شأن الرجل العظيم.

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائدٍ عنه وعادٍ عليه، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم.

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يأبهون لها، ولا يعرفون لها يدها.

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الأرض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التي تطؤها الأقدام، وتدوسها الحوافر والأخفاف.

كن زعيم الناس إن استطعت، فإن عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء والتلصق بهم، أو مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم، فإن فعلت كنت التابع الذليل وكانوا الزعماء الأعزاء.

الانتقاد

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده، وآدابه وواجباته. ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود، ولا آداب ولا واجبات، وأن لكل كاتب أو قائلٍ الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام، مصيبًا كان أم مخطئًا، محقًّا أم مبطلًا، صادقًا أم كاذبًا، مخلصًا أم غير مخلص؛ لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان، وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع، إلى أنة النزع. وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبة فيه ولا مراء، فإن أصاب الناقد في نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، وإن أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضع الخطأ فيه، ويرشده إلى مكان الصواب منه، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ، حتى يستقيم له الصواب كله.

فإن أبينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كفئًا في علمه ومخلصًا في عمله – كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس – فقد أبينا عليه أن يخطَّ سطرًا واحدًا في الانتقاد، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت؛ لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدودًا معينة واضحة، فكل منتقد يزعمهما لنفسه، وكل منتقَدٍ عليه يجرد منتقِدَه منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله فيسمح به لجماعة المنتقدين!

على أنَّ المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيبًا في بعض ما يقول؛ لأنه لم يأخذ على نفسه عهدًا أن يختلق جميع المآخذ التي يأخذها، وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عياب بالحق وبالباطل، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المختلقة. ولقد كتب أول انتقادٍ في التاريخ بمداد الضغينة والحقد، فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفةٌ من الشعراء يجوبون البلاد ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الأسواق والمجتمعات، وبين أيدي الأمراء والعظماء، فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالًا عظيمًا، ويجزلون لهم العطايا والهبات، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعةٌ من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم، ولا يحظون عند الملوك والعظماء حظوتهم، فأخذوا يعيبونهم، ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم وأصواتهم، ومعاني أشعارهم وأساليبها. وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد، والفضل في ذلك للضغينة والحقد، فلرذيلة الحقد الفضل الأول في وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة.

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه في استحسان الكلام واستهجانه رأيًا صائبًا، لا بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه – متى رزق حظًّا من سلامة الذوق واستقامة الفهم – أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملًا، ويتعمق تعمقًا كثيرًا في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما،

وربَّ ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامي عفوًا أنفع للأديب حين يراهما وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه من مجلد ضخم يكتبه عالم مضطلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره. وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتبٍ أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها، أو خاصتها وعامتها، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها - متعلمًا كان أو جاهلًا - أن يُدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه، واستهجان ما يستهجن منه؟

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحائف المجد، إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها؟

وبعد، فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعًا إلا الغبيُّ الأبله الذي لا يبالي أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم، ويزعجه كل الإزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها. أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم، ويَفْرَقُ من رؤية الأشباح، ولو رجع إلى أناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صوابًا فقد دله على عيوبِ نفسه فاتقاها، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه؛ لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم، يأمرونهم بالباطل فيذعنون، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون. ولئن استطاع أحد أن يخدع أحدًا في كل شأنٍ من

الشئون فإنه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه. ولو أنَّ الأصمعي، وأبا عبيدة، وأبا زيد، والجاحظ، والقالي، وقدامة، وابن قتيبة، والآمدي، وأبا هلال، والجرجاني، بعثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلا لما كرهوها، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر «فلان» لما أحبوها، فالحقيقة موجودةٌ ثابتة لا سبيل للباطل إليها، فهي تختفي حينًا أو تتنكر، أو تتراءى في ثوب غير ثوبها، ولكنها لا تنمحي ولا تزول.

فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت، ولتتسع لها صدور المنتقَدين ما استطاعت، فقد حرمنا الحرية في كل شأن من شئون حياتنا، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير.

يوم العيد

أفضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان أنَّ امرأةً بائسةً وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطرقه الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله، فابتهجت بمرآه ابتهاجًا عظيمًا؛ لا لأنها غريرةٌ بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد كما وعدته. فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة، والرجل يغالي به مغالاةً شديدةً حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه، وأنها لا تستطيع العودة بدونه، فساقتها الضرورة التي لا يقدرها إلا من حمل بين جنبيه قلبًا كقلب الأم، وفؤادًا مستطارًا كفؤادها، إلى أن تمد يدها خفيةً إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أنَّ الرجل لا يراها ولا يشعر بمكانها.

ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آنٍ واحدٍ خفقتين مختلفتين: خفقة الخوف من عاقبة فعلتها، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظاتٍ قليلة إلى ولدها. وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها

حتى عرف منزلها. ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعًا إلى الغرفة التي تسكنها، ففاجأها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور. فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخةً عظيمة لا على التمثال الذي انتزع منه، بل على أمه المرتعدة بين يديه، وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاثٍ بين يدي الرجل: رحماك بأمي يا مولاي، وظل يبكي بكاء شديدًا. فجمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر، وأطرق إطراقًا طويلًا، وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد، فانتفض انتفاضةً شديدةً وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة المسكينة حزينةً منكوبةً في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعًا، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما: أظن أني أخطأت في اتهام هذه المرأة، فإني لا أبيع هذا النوع من التماثيل. فانصرفا لشأنهما، والتفت هو إلى الولد فاستغفره ذنبه إليه وإلى أمه، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته. فشكرت له فضله ومروءته، وجبينها يرفض عرقًا حياء من فعلتها، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان.

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سمائها نجمان مختلفان: نجم سعود، ونجم نحوس. أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم

صنوف الأردية والحلل، ولأولادهم اللعب والتماثيل، ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب، ثم ناموا ليلتهم نومًا هادئًا مطمئنًّا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء. وأما الثاني فللأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضى يئنون في فراشهم أنينًا يتصدع له القلب، ويذوب له الصخر؛ حزنًا على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم وبأعينهم ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادهم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم، فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها.

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سجل لصاحب حانوت التماثيل؟

إنَّ رجلًا يؤمن بالله ورسله، وآياته وكتبه، ويحمل بين جنبيه قلبًا يخفق بالرحمة والحنان، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء، ولا قلبه من الخفقان، عندما يرى في العيد – في طريقه إلى معبده، أو منصرفه من زياراته – طفلةً مسكينة بالية الثوب، كاسفة البال، دامعة العين، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلًا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها، ورثاثة ثوبها، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن. فلا يجد بدًّا من

أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها، وعلى بؤسها ومتربتها؛ لأنه يعلم أنَّ جميعِ ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدةً من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة في عينيها.

حسب البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عامٍ مرةً أو مرتين.

من الشيوخ إلى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشرِ الأبناء أنَّ شبابكم أعظم قوةً ونشاطًا، وأبعد همةً، وأقوى عزيمةً من شيخوختنا، وأنَّ أيدينا الشاحبة المعروقة لا تستطيع أن تصل إلى ما تصل إليه أيديكم الفتية المقتدرة، وأنَّ آراءكم وأفكاركمِ وجميعِ تصوراتكم وآمالكمِ التي تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدةً وحرارةً، وأبعد غورًا وعمقًا من آرائنا وتصوراتنا. ولكن الذي ننكره عليكم، ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا واحتقاركم لنا، ورميكم إيانا بالجمود مرةً والخرف أخرى كلما اختلفنا معكم في شأن من الشئون. كما أننا ننعى عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم الذي يخيل إليكم معه أنَّ هذه الألوان الجملية التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم، ووقف عليكم، لم تمر بعصر غير عصركم، ولم يَزْهُ بها شباب غير شبابكم، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الأول في ابتكارها، وافتراع عذرتها. ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الروية والأناة، وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر إلى الماضي – وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من خصائصه – لعلمتم أنَّ هذا العهد الذي يمر بكم اليوم، والذي تفاخروننا به، وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه، وتصوراته وخيالاته، قد مر بنا مثله في زماننا. فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما

تتصورون، ونفكر كما تفكرون، ونردد في أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا جميع هذه الآراء والأفكار التي ترددونها اليوم. حتى انطوى ذلك العهد وزالت معالمه، وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا، ودخلنا غمار الحياة الحقيقية؛ حياة الجد والعمل، والنظر والتأمل، والخبرة والتجربة. فاستطعنا أن نرجع إلى نفوسنا، ونثوب إلى رشدنا، وأن نهبط بهدوء وسكون إلى أعماق قلوبنا، ونستعرض تلك الآراء والأفكار، والأحلام والآمال بإمعان وتدقيق. فاستطعنا أن نميز صالحها من فاسدها، وصادقها من كاذبها، ومعقولها من موهومها، وأن نقلب الأشياء على جميع وجوهها، ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح، ونوازن بين هذه وتلك. فأخذنا بما أربت حسناته على سيئاته، فلا فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعًا، إنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته، ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك.

وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة، وأخص صفاته قصر النظر، وسرعة الحكم، والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة: ماضيه وحاضره ومستقبله؛ فهو لا يستطيع أن يتصور تصورًا ثابتًا متينًا أنَّ الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده، لا يشرق إلا من مطلعه، ولا ينبت إلا من تربته، وأنَّ المستقبل بيد الطبيعة

القاسية وقوانينها الصارمة. وليس أقرب إليه من أن يتصور أنَّ في استطاعته أن يمحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسمائه، ثم يخلقه خلقًا جديدًا على الصورة التي يريدها ويتصورها، وأنَّ في إمكانه أن يحيل الترب أمواهًا والأمواه تربًا. وأن يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بإرادته، وأن يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والأحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها، حتى تطلع في رأسه أول طليعةٍ من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته، وتفتر حدته، ثم لا يلبث أن يسقط جاثيًا بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفًا بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حولٍ وقوةٍ هاتفًا: إنَّ للكون إلهًا لا أستطيع محادته، وللطبيعة سنةً لا أستطيع تبديلها.

كنا نفكر كثيرًا في شأن المرأة كما تفكرون اليوم، ولا نجد حديثًا ألذ ولا أطرب من الحديث عنها. وكنا لشدة إعجابنا بها، واهتمامنا العظيم بترفيهها وتدليلها، والوقوع من نفسها موقعًا جميلًا، ندافع عنها ضد أنفسنا، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها. ونتمنى بجدع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية إلى أقصى حدودها، فتتبرج كما تشاء، وتسفر كما تريد، وتجلس إلى الرجل جنبًا لجنب في المجتمعات العامة والخاصة بدون أن يعارضها معارض، أو يكدر عليها صفوها مكدر.

بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها إلى أكثر من ذلك؛ فكنا نغتفر لها سيئاتها الأدبية ونسميها سقطات - أي هفوات فردية لا أهمية لها - ونغريها بمحاسبة زوجها حسابًا شديدًا على خيانته لها، ومقابلة فعلاته بمثلها؛ لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه، ونقول لها: ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها. وكنا نظن أنَّ هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا، صادرة من أعماق قلوبنا، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فيها، وأنها آراء الشباب وخواطره، وأحلامه وتصوراته، ولا يثقل على الشباب في ريعانه شيءٌ مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة، وذلك الجدار القائم بينها وبينه.

وكنا نبتهج بكل جديدٍ كما تبتهجون، ونفر من كل قديم كما تنفرون. ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ونفس قدره، لا لأننا وازنا بينهما، وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما؛ بل لأننا كنا قريبي عهدٍ بزمن الطفولة، والطفل سريع الملل، كثير السآمة، لا يصبر على لعبته أكثر من يوم واحد ثم يملها فيكسرها ويستبدل منها غيرها

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورةً خاصةً ترتكز عليها أعمالنا في الحياة، بل كانت تمر بنا جميعًا الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفيلم» صوره كأن فضاء حياتنا معمل لتجاريب الحياة واختباراتها.

وكان العارف منا بلغةٍ أجنبية لا يلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتانًا شديدًا ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها في أحاديثه واستشهاداته، ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحدٍ غيره، لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم؛ بل لأنه كان بسيطًا غريرًا يحتقر كل ما في يده، ويستعظم كل ما في يد غيره.

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والأفكار، وأنها لم تكن عقائدها راسخةً في نفوسنا، بل أشباحًا وصورًا تتراءى في سماء حياتنا، فنعجب بها، ونستطير فرحًا وسرورًا بجمال منظرها، وبهجة ألوانها، فأصبحنا معتدلين في آرائنا، متئدين في أحكامنا، نحب حرية المرأة، ولكننا نكره فسقها وفجورها، ونأخذ مواد المدنية والحضارة من الأمم المتمدينة، ولكننا لا نقلدها، ونحب أدب الغربيين ونعجب بأدبائهم وعلمائهم، ولكننا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا.

نحن لا نطلب منكم - معشر الأبناء - وأنتم في ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا معتدلين في أحكامكم وتصوراتكم، أو هادئين في مطامعكم وآمالكم، فليس من الرأي أن نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عند أنفسنا. ولكن أمرًا واحدًا كنا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص، هو الذي نطلب إليكم أن تحرصوا عليه مثلنا، وتضنوا به ضنَّنا.

كنا نعتقد مثلكم أننا خيرٌ من آبائنا وأجدادنا، وأوسع منهم علمًا وأقوى إدراكًا، وربما اعتقدنا في الكثير منهم - كما تعتقدون فينا اليوم - أنهم جاهلون أو مخرفون، أو متأخرون أو جامدون، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها، فلا نلقبهم من هذه الألقاب التي تلقبوننا بها، ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم. وكان شأننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم - مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم - شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق؛ إذ كان مسيحيًّا فأسلم وحسن إسلامه، وكان أبوه لا يزال على دينه، فطلب إليه أن يبني له بيعةً في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية، فبناها له كما أراد، ولم يَنْعَ عليه شأنًا من شئونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه.

ذلك ما نضرع إليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا. واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتي علينا، وأنكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبناؤكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا، فنحن آباؤكم الذين ولدناكم، وأساتذتكم الذين ربيناكم، ومن أكبر العار عليكم وعلى تاريخكم أن تسبوا أساتذتكم وآباءكم وأن ترموهم في وجوههم بالجهل والجمود، وما هم بجاهلين ولا جامدين، ولكنهم شيوخٌ عاجزون.

الموتى

«مترجمة»

دقت أجراس المساء تنعى اليوم الراحل، وتندب جماله الزائل، وأخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بعصيهم، لا يريدون بها شرًّا ولا أذًى؛ لأنهم يحبونها ويرحمونها، بل يخافون عليها الضلال، فهم يهدونها الطريق. ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر، فهو يقيها برد الليل وغائلته. وساد سكون رهيب في تلك الأنحاء، فلا يسمع إلا صوت البلبل يشكر للقمر ما أهدى إلى جناحيه من أشعة متلألئة، ونعيب البوم يمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى في سمائه، وما شكاته إلا أن بني آدم يطئون أرضه، وينتهكون حرمة خرباته المقدسة، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدةً طويلةً، بل أكثر من طويلة؛ لأنها لا نهاية لها، فلا نسمات الصباح الباردة، ولا تغريد الطيور الصادحة، ولا صياح الديكة، ولا رنين الأجراس، ولا هتاف الرعاة، يوقظهم من رقدتهم هذه.

أسفي عليهم، لقد أمسوا ولا نيران توقد في أكواخهم، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجئن في تهيئة طعام عشائهم، ولا صبية صغارًا

يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبلاتهم. أولئك الرقود الهامدون كانوا بالأمس أشداء أقوياء، تمد السنابل أعناقها خاضعة لمناجلهم، ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم، وترعد جذوع الأشجار الضخمة فَرَقًا من ضربات فئوسهم.

أولئك الوجوم الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين، يرقصون ويغنون، ويجدون السعادة والبهجة في كل ما يحيط بهم، فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء، كأنما يسمعون قيثارةً مطربة، ويجدون في ضجعتهم فوق الأعشاب اليابسة الراحة التي يجدها أصحاب الأسرَّة فوق مهادهم الوثير، ويشعرون في تناولهم اللقمة الجافة السوداء بعد الجوع باللذة التي يشعر بها الأغنياء في تناولهم ألوان الطعام الشهي على موائدهم، ويغترفون بأكفهم الماء من الأنهر والخلجان، فيلتذُّون بارتشافه كأنما يتناولون صافية الصهباء في كئوس البلور والذهب.

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تنصب لهم التماثيل، ولم ترفع فوق قبورهم القباب، كانوا في حياتهم شرفاء عظماء؛ لأنهم كانوا متحابين متآخين، لا يحسد فقيرهم غنيهم، ولا يبغي قويهم على ضعيفهم، ولا يحقدون ولا يغدرون، ولا يخافون شيئًا حتى الموت، ولا يعبدون إلهًا إلا الله.

كذلك كانوا بالأمس، واليوم طواهم الرمس، فرحمة الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض، وبعدما أصبحوا في بطنها.

فليجثُ فوق رمال هذه القبور المبعثرة، وبين أحجارها المتهدمة المتساقطة، أرباب المطامع في الحياة، وطلاب المجد والعظمة خاشعين مستكينين، خافضي رءوسهم إجلالًا وإعظامًا. وليمسكوا قليلًا عن الإدلال بعزهم وجاههم، والمكاثرة بفضتهم وذهبهم، وليخفوا في أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة على شفاههم. وليعلموا أنَّ طريق المجد والعظمة التي يسيرون فيها – وإن كانت مخضرة جميلة، مفروشة بالأعشاب، محفوفة بالأزهار الأريجة– فإنها تؤدي في نهايتها إلى هذا المصير الذي صار إليه هؤلاء المقبورون.

أيها الناعمون في عيشهم، المدلون بعزهم وجاههم، المفتخرون بقوتهم وجمالهم، لا تحتقروا هؤلاء المقبورين المساكين إن رأيتم أجداثهم مشعثةً بالية، وقبابهم متهدمةً خاوية، ولم تروا أسماءهم منقوشةً بأجمل الألوان وأزهارها على صفائح قبورهم، وأصغوا قليلًا تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران، والحقول والمروج، والطيور المغردة فوق أعالي الأشجار، والسوائم الحائمة على ضفاف الأنهار. فهم أصحاب اليد التي رصعت التاج للملك، وصنعت السيف للقائد، ونسجت المسوح للراهب، وبنت القصور للأمراء، وصاغت الحلي للأميرات، وغرست العشب للسائمة، ووضعت الحَب للطائر، وهيأت للأحياء جميعهم – ناطقهم وصامتهم – طعامهم وشرابهم، ودثارهم ومهادهم.

أيها القوم العظماء، لا تخلد التماثيل المنصوبة غير ذكرى ناحتيها، ولا تطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التي يخطها التاريخ في صفحاته، ولا تسمع آذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة في أناشيد الرثاء.

رب يدٍ تحت هذه الأرض لو أتيح لها الحظ في حياتها لكانت يد العازف الذي يشنف الآذان، أو يد البطل الذي يهز العروش ويزعزع التيجان، أو يد الشاعر الذي يثير الأشجان ويبعث إلى القلوب السرور والأحزان. ورب قلبٍ في هذه الحفائر المظلمة لو عاش في جوٍّ غير هذا الجو، وعالم غير هذا العالم، لكان قلب ملكٍ عظيم مملوءٍ بالآمال العظام، والأماني الجسام، أو قلب زعيم جريء يحاسب الظالمين على ظلمهم، ويذود النوم عن أجفانهم، أو قلب نائبٍ كبير يستهوي ببلاغته القلوب، ويسترعي الأسماع فتدوي له بالتصفيق قاعة مجلس النواب.

كم من لؤلؤةٍ لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينةً بين صدفتيها! وكم من زهرة أريجةٍ لم تكد تتفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فأذبلتها! وكم من ماسةٍ وضاءةٍ عجز المعدنون عن استخراجها من معدنها فانطفأ نورها في منجم الفحم المظلم! وكم من قريحةٍ وقادةٍ لم تصقلها العلوم والتجاريب فعاشت مغفلةً مهملة حتى انطفأت شعلتها، ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون، وبدلت الأرض غير الأرض! نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين

من كان له قلب كقلب «همبدن»، إلا أن التاريخ لا يعرفه، ومن كان له لسان كلسان «ملتن»، إلا أنه لم ينصب له تمثال، ومن كانت له همة كهمة «كرومويل»، إلا أنه لم يقد الجيوش. ولكنهم عاشوا في هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم، وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم، فمروا بهذا الدنيا ولم يشعر بهم أحد، ثم ماتوا ولم يذكرهم أحدٌ.

هنيئًا لهم جهلهم وخمولهم، فلو أنهم كانوا عظماء لقضوا أيام حياتهم يسفكون الدماء، ويمزقون الأشلاء، ويغتالون حقوق الضعفاء سعيًا وراء أغراضهم ومطامعهم، لا بل إنهم كانوا عظماء ولكنهم بريئون من آثام العظمة وجرائمها.

رحمة الله عليهم، لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يدل عليهم سوى حجرٍ قديم ملقًى في طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيمٍ هذا البيت البسيطَ من الشعر:

أيها المارُّ في هذا المكان احترم تربته ... ولا تطأ بقدميك رفات الموتى

هذا كل ما طعموا فيه من شئون الحياة بعد موتهم، لم يطلبوا تمثالًا يقام لهم، ولا قبةً ترفع فوق أضرحتهم، ولا صفحةً خاصةً من صفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم، بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم، ولا قطرة غيثٍ تبل ثراهم، فما كان أقنعهم وأزهدهم!

الزهرة الذابلة

ورد إليَّ من صاحب التوقيع الكتاب الآتي:

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري، حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية، ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح، غير أني عزمت على الكد للعام المقبل، وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض «الحمى» العضال الذي ضعضعني، وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني «الصمم» الكامل. فضاعت بذلك آمالي، وأظلمت الأرض في وجهي، فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدي إليَّ جميلًا بكلمة تعزيةٍ من عندك، وأنا أحق الناس بالعزاء، والسلام.

٦ يناير ١٩١٤

ر. م.

لا أستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بني، فهو فوق ما يحتمل المتحمل ويطيق الجَلْدُ الصبور، ولو أنني حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك، ولكان شأني معك شأن أولئك الهازلين العابثين الخادعين من المعزين الذين يختلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوئين ليقولوا للثاكل ولده: «لقد قدمت بين يديك شفيعًا يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك.» وللباكي أباه: «ما مات من خلف

مثلك.» وللباكي أخاه: «إنَّ في الباقي عزاءً عن الماضي.» وللباكية زوجها: «الشباب غض والرجال كثير.» وللفاقد بصره: «حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك.» وللمحتضر المشرف: «إنَّ في لقاء ربك عوضًا عن لقاء الدنيا.» ولمن حلت به نكبةٌ مثل نكبتك: «لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء.» كأنما هم يحسبون أنَّ الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه هان عليه هذا لذاك، واغتفر ما فات لما هو آتٍ، ولا يعلمون أنَّ الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرةٌ من زفرات الحب، أو نفثة من نفثات الوفاء، ولا دخل للحساب والمعاوضة في شيء من ذلك، وأن أقسى الآباء قلبًا وأصلبهم فؤادًا لو ساومه مساومٌ في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الأرض والسماء لكان رأيه في ذلك رأي ابن الرومي في قوله:

وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وأنَّ الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرةٍ من أولادها، والصديق يبكي فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه في كل محلةٍ يحل بها، والزوجة تبكي زوجها وإن كان تحت كل نافذةٍ من نوافذ منزلها خطيبٌ يترقبها، وأنَّ البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكًا وبؤسًا يضن بحياته الضن كله إذا أحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنةٍ عرضها السموات

والأرض. فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدرائها وتصغير شأنها في أعينهم، ويلقون في نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوبًا تحس بإحساسها، وتشعر بشعورها، من حيث يظنون أنهم يخففون عنهم آلامهم ويأخذونهم بنسيانها.

وأعوذ بالله أن أكون يا بُنَيَّ من الكاذبين في تعزيتك، أو الغاشين لك فيها، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت. وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من لا يستطيع أنِ يعزي نفسه عن مصابه فيك، فلقد ترك كتابك هذا بين جنبيَّ لوعةً من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك، حتى صرت كأني أنا الذي ابتليت بما ابتليت به، وكأن الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك. فلقد انقطع عنك بفقد سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعًا من سببٍ وصلة، فأصبحت وأنت في دار الأنس والاجتماع، وبين ضوضاء الحياة وضجيجها، كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك في مدينةٍ متحجرةٍ من مدن التاريخ القديم، لا تأنس فيها بأحدٍ ولا يأنس بك فيها أحد، ولا ترى بين يديك إلا نصبًا ماثلةً، وتماثيل جامدة.

تحسب العينُ أنهم جد أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفه عن نفسك في ساعةٍ من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناءٍ، ولا رنة حداءٍ، ولا خرير نهرٍ، ولا تغريد طيرٍ، ولا حفيف

شجرٍ، ولا رفيف ريح، ولا ثغاء شاةٍ، ولا نقيق ضفدع، ولا صرير جندبٍ. سواءٌ لديك لَيلك ونهارك، وصبحك ومساؤك، ويقظتك ومنامك، فإن فررت من وحشتك هذه إلى مجتمع من المجتمعات العامة فجلست إلى الناس ساعة تتفرج فيها مما بك، لا تسمع شيئًا مما يقولون، ولا يعنيهم أن يسمعوا شيئًا مما تقول. فإن قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفًا من حروفهم، أو تتفهم حركةً من حركات شفاههم، أو إشارةً من إشارات أيديهم، أنكروا عليك نظراتك، وسخروا منك فيما بينهم وبين أنفسهم. لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم، ورموا بها في وجهك من حيث لا تعلم. فإن رأوا منك أنك تقتضب الأحاديث اقتضابًا، وتذهب منها في أوديةٍ غير أوديتهم، وأنك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم؛ فتعلو به عليها أو تنزل به دونها، وأنك تبتسم في موضع التقطيب وتقطب في موضع الابتسام، أصبحوا ينظرون إليك بتلك العين التي ينظرون بها إلى الأطفال الصغار، والبله الأغرار. فإن ألمت بسر نظرتهم هذه إليك ألمَّ بك من الحزن والهم ما لا طاقة لك باحتماله، وأصبحت ترتاب بكل نظرةٍ تتجه إليك، وكل ابتسامة تتراءى لك، واعتادك سوء الظن بكل جالسٍ يجلس إليك من أصدقائك وعشرائك، بل من أبويك وأهليك، فلا يكاد يسلم لك صديق، أو يصفو لك حميم.

فإن فررت من الناس نجاةً بنفسك من لؤمهم وقسوتهم، فررت إلى خلوةٍ موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك، وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك في أيامك الأولى، وما انتهى إليه أمرك في أيامك الأخرى، فلا تنفعك خلوة، ولا يؤنسك اجتماع.

وأخوف ما أخاف عليك إن استمرَّ بك هذا الشأن - ولا أسأل الله دوامه - وظللت تنطق ولا تسمع، وتقول ولا تفهم ما يقال، أن تصبح في يوم من أيامك لا سامعًا ولا ناطقًا، فالسماع مادة النطق التي يستمد منها قوته وحياته، ومن لا يسمع لا يحسن النطق، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير.

وكثيرٌ عليك يا بني وأنت زهرةٌ يانعة في روض الشباب وابتسامةٌ لامعةٌ في ثغر الآمال، وفجر مشرق في سماء الحياة، أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربا الحياة، فلا تلبث إلا قليلًا حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم لا يعدو بك إلا قليلًا حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء.

فوا رحمتاه لك يا بني مما بك اليوم، ومما يستقبلك به الدهر غدًا! فأسأل الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك، أو يمنحك عينًا ثرةً من الدمع لا ينضب معينها، تسكب منها صباح كل يوم ومساءه سَجلًا على فؤادك الملتاع فتبرد غلته، وتفثأ لوعته، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها المنكوبون والمحزونون يوم لا

يجدون لأنفسهم في مذهب من مذاهب الأرض، ولا في سبيل من سبل السماء ناصرًا ولا معينًا، والسلام عليك – من الراثي لك، الباكي عليك – ورحمة الله.

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها، ولا ما هي الصلة التي تبقى بين المرء وبين حياته الأولى بعد رحيله عنها؟ فإن كان صحيحًا ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها ورجامها منفذًا يشرف منه على هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكرٍ جميلٍ، وثناء عاطرٍ، وسيرةٍ صالحةٍ، ومجدٍ باقٍ، فإن نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار، وصالح الأعمال، أوفر الأنصبة وأجزلها.

ما أنعم الله على عبده نعمةً أسنى قيمةً، ولا أغلى جوهرًا، ولا أحسن أثرًا من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل الطيب، فهو يعتقد أنه مجزيٌّ على عمله، مكافأٌ به، مؤمنًا كان أم ملحدًا، معترفًا بنعيم الآخرة أم منكرًا له. فإن كان الأول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها، ولؤلئها ومرجانها، وروحها وريحانها، وإن كان الثاني ساقه إليه شغفه بالذكر الجميل، والسيرة الصالحة، والحياة الباقية في ألسنة الأجيال وبطون التواريخ، ولولا هاتان الجنتان – جنة المؤمنين وجنة الملحدين – ما جد في هذه الحياة جاد، ولا عمل فيها عامل.

إنَّ ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايتيه العمل الصالح والجزاء عليه معًا، وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذبالة حياته، وتحترق فحمة شبابه، حيث تموت في قلبه لذة العظمة، وتنضب في فؤاده شهوة المجد، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعةً من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة، إما حياة الأجر، أو حياة الذكر.

مات جرجي زيدان فنحن نبكيه جميعًا، أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظرًا من أجمل المناظر وأبهاها؛ لأنه يعلم أنَّ هذه الدموعِ التي نرسلها وراء نعشه أو نمطرها فوق ضريحه إنما هي ألسنةٌ ناطقة بحبه وإعظامه، والاعتراف بفضله، والثناء على عمله، وأنها المداد الإلهي النوراني الذي تكتب به في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد، وعظمته الباقية، وذلك ما كان يريد أن يكون.

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه؛ لأنه كان يحمد وده وإخاءه، وبكاه جاره؛ لأنه كان يجد في جواره لذة الأنس وجمال العشرة، وبكاه معتفيه؛ لأنه كان ينتفع بماله، وبكاه صنعيته؛ لأنه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارئ كتبه؛ لأنه كان يجد فيها من غزارة المادة وجمال الأسلوب وسهولة التناول ما لا يجد في غيرها، وبكاه

قارئ رواياته؛ لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها عونًا له على هموم الحياة وآلامها، أما أنا فبكيته لأمرٍ فوق ذلك كله.

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات؛ ناطقها وصامتها، ساكنها ومتحركها، جامدها وسائلها، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها، أو صورتها التي تتشكل بها، وتأخذ منها الأغراس نماءها، والأزهار ألوانها، والنار حرارتها، والأجسام الحية قوتها، والأجسام الجامدة صورتها، والأجواء طهارتها ونقاءها، والآفاق جمالها وبهاءها، وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذه البلد.

كان بطلًا من أبطال الجد والعمل، والهمة والنشاط، يكتب أحسن المجلات، ويؤلف أفضل الكتب، وينشئ أجمل الروايات، ويناقش ويناضل، ويبحث وينقب، ويستنتج ويستنبط، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آنٍ واحد، لا يشغله شأن من تلك الشئون عن غيره، ولا يشكو مللًا ولا ضجرًا، ولا يستشعر خورًا ولا فتورًا، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين، يتعلمون منه أن قليلًا من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير والعمل القليل.

ولو شئت أن أقول لقلت: إنَّ جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت إلى مصر في أواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييرًا كليًّا، وغرست في صحرائه القاحلة

المجدبة أغراس الجد والعمل، والشجاعة والإقدام، والهمة والاستقلال، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون، وينشئون الجرائد والمجلات، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعةً يقومون بها حياتهم المادية وحياة أمتهم الأدبية، ويتقون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها ويسألونهم أن يتخذوهم عبيدًا لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التي يجلسون عليها، فإما عطفوا عليهم فألقوا إليهم بالنزر الخسيس من فتات تلك الموائد، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب العاوية.

وكان شريف النفس، بعيد الهمة، متجملًا بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتشيع ولا يتحيز، ولا يداهن ولا يجامل، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالًا للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه، فكتب - وهو المسيحي الأرثوذكسي - تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتم الحسنة إذا رآها، ولا يشمت بالسيئة إذا عثر بها، فاجتمع بين يديه في مجلس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خاصتها وعامتها، عربها وعجمها، جمعٌ لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القَويم حجته أمام أولئك المتعصبين من الأوروبيين الذين لا يثقون في خبرٍ من أخباره ولا في بحثٍ من أبحاثه بحديث شيعته وأبنائه. وكان

في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ، يتعلم منه كيف يكتب التاريخ بلسان التاريخ لا بلسان الدين، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه وميول نفسه وخواطِر قلبه أمام الأمانة للعلم والوفاء بحقه.

وكان مستقيمًا في عمله، أمينًا في علائقه، لا يكذب ولا يتلون، ولا يخيس بعهده، ولا ينكث وعده، ولا يكسو بضاعته لونًا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها في عيونهم، فتعلم منه العاملون أنَّ الكذب في المعاملة ليس شرطًا من شروط الربح، ولا سببًا من أسباب النجاح.

وكان واسع الصدر، فسيح رقعة الحلم، وقف له في طريق حياته - كما وقف لغيره من قبله ومن بعده - فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه، وقالوا: إنه شوه وجه التاريخ الإسلامي، وعبث بحقائقه، ولم يسألوه من أين نقل؟ ولا كيف استند؟ بل سألوه لم لم يكتبه كما كتبوا، ويستنج منه مثل ما استنتجوا؟ كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحيًا متسامحًا حتى أرادوا منه أن يكون مسلمًا متعصبًا، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون، وينهج فيه كما ينهجون، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد في عمله، وخبث النية في مذهبه، ولم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم الجامحة على

أن يقولوا: إنَّ الرجل باحثٌ مستنتج، يخطئ مرةً ويصيب أخرى. أو يقولوا: إنَّ له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك. وما أحسب أن أحدًا منهم كان يعتقد شيئًا مما يقول، ولكنهم كانوا يرون أنَّ الدين سلعةٌ تباع وتشترى، وأنَّ سلعته ملكٌ لهم ووقف عليهم، لا يجب أن تعرض في حانوت غير حانوتهم، وكانوا يظنون أنَّ الرجل تاجرٌ مثلهم يريد أن يفتح في سوقهم الحانوت التي يخافونها، فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه، واستثقلوا ظله، وقالوا مرة: إنه مسيحي لا يؤمَن على الإسلام ولا على تاريخه، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل عيسى، وقالوا أخرى: إنه سوريٌ دخيل وفد على هذا البلد مسترزقًا أو متجرًا، فما هو بمخلص ولا بأمين، وفاتهم - عفا الله عنهم - أنه إن كان ضيفًا، فليس من أدب الضيافة ولا من خلال المروءة والكرم أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده، وأن يعد عليه لقيماته التي يطعمها على مائدته، وإن كان تاجرًا فقد باعهم بهذا النزر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله، وينبوع ذكائه، ومادة حياته، فما كانوا من الخاسرين، ولا كان من الرابحين.

ووالله ما أدري كيف تتسع صدروهم للخمَّار الرومي واللص الإيطالي وللفاجر الأرمني أن يفتح كل منهم في كل موطئ قدم من مدنهم وقراهم حانًا يسلب فيه عقولهم، أو مقمرًا يسرق فيه

أموالهم، أو ماخورًا يهتك فيه أعراضهم، فلا يطاردونه ولا يحاربونه، ولا يسمونه دخيلًا ولا واغلًا، ثم يضيقون ذرعًا بالعالم السوري أو العراقي أو المغربي ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة، فيعلمهم العلم، ويهذب نفوس أبنائهم، ويثقف عقول ناشئتهم، ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط، والشجاعة والإقدام.

ذلك هو شقاء الأمم، وهذا جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها.

لم يضق الرجل ذرعًا بهذا كله، بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم، ولا يشتمهم، وينبههم إلى أدب المناظرة وواجباتها ولا يؤنبهم، ويدعوهم إلى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم، ولا يمكر بهم. حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم، وإن كان مخطئًا، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل وسوء الخلق وضيق العطن وإن كانوا مصيبين.

ولقد وضع بخطته هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجرٍ في بناء الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة، فتعلم منه كثيرٌ من أدباءِ هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشاتموا، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا في معاركهم قطرةً واحدة من دم الفضيلة والشرف. فإن تم لهذه الأمة في مستقبل حياتها حظها من شرف الأخلاق وعلو الهمة

ونبالة المقصد في جميع شئونها وأغراضها، فلتذكر دائمًا أن جرجي زيدان كان أحد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة، دولة الآداب والأخلاق.

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وإنما الذي يعوزنا روحٌ عاليةٌ تخفق في سماء هذه الأمة خفوق النجم في سمائه، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها؛ فتبعث العزيمة في قلب العاجز، والشجاعة في فؤاد الجبان، وتقوم من الأخلاق معوجها، وتصلح من الآداب فاسدها، وتثبت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغيرٍ وكبيرٍ وقويٍّ وضعيفٍ أنَّ قيمة المرء في حياته أداء واجبه للإنسانيَة أولًا، ولأمته ثانيًا، ولنفسه أخيرًا. وأنَّ الحب سعادة الإنسان، والبغض شقاؤه وبلاؤه. وأنَّ الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الأول يتسع صدره لكل شيءٍ حتى لمخالفيه ومحاربيه، وأنَّ الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه، وأنَّ الله تعالى أوسع رحمة وأعلى حكمةً من أن يسد في وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلا طريق السيف والنار. وأنَّ هذه الأحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهابًا لا تؤججها في صدروهم الأديان نفسها، بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويستثمرونها، ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل. وأنَّ الذين يقدسون هذه الأحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءًا من ماهية الدين ومقومًا من مقوماته، إنما يقولون

من حيث لا يشعرون: إنَّ الإلحاد في العالم، والفوضى الدينية فيه، وعبادة الشمس والقمر، والترب والحجر، أنفع للمجتمع الإنساني وأحسن عليه عائدةً من عبادة الإله المعبود.

ولقد كان جرجي زيدان روحًا من تلك الأرواح العالية تمنيناها برهةً من الزمان حتى وجدناها، فلم ننعم بها إلا قليلا ثم فقدناها أحوج ما كنا إليها؛ فذلك ما يبكينا عليه ويحزننا على فراقه.

* * *

الكاتب كالمصور، كلاهما ناقلٌ، وكلاهما حاكٍ، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس، والثاني ينقل مشاهد الحس إلى الحس.

وكما أنَّ ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد، كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس خيال المكنون في النفس.

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها دائمًا إلى الكتابة والكُتَّاب، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم، كنت أقرأ ذلك الأسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته، فأتخيله مرآةً نقيةً صافيةً قد ارتسمت فيها صورة نفسه جليةً واضحة لا غموض فيها ولا إبهام.

وقليلًا ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتبٍ سواه؛ لأن الكاتب إن استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه، أو براعة معناه، أو سعة خياله، أو قوة حجته،

فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا إذا كان من الصادقين المخلصين.

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه، وطهارة قلبه في طهارة لسانه، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه، وجمال ذوقه في جمال ملاحظاته واستنتاجاته، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجاراة المتكبرين من الكُتَّابِ في كبريائهم، ونزوله في كثير من مواقفه إلى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمونه؛ لأنه كان من كُتَّابِ المعاني لا من كُتَّابِ الألفاظ، ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون على أن يرضى عنه المتحذلقون.

وإنْ كان الرجل هو الأسلوب كما يقولون، فلا أعلم أنَّ أحدًا في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان، فوا رحمتاه له، ووأسفا عليه!

احترام المرأة

نعم إنَّ الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز، ولكن المرأة عماد الرجل، وملاك أمره، وسر حياته، من صرخة الوضع، إلى أنَّة النزع.

لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الأم، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتبسط عليه جناح رحمتها ورأفتها، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيلا إلى قلبٍ واحدٍ يخفق خفوقًا واحدًا ويشعر بشعور واحد، وهي التي تسهر عليه ليلها، وتكلؤه نهارها، وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله، غير شاكيةٍ ولا متبرمة، بل تزداد شغفًا به، وإيثارًا له، وضنًّا بحياته، بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته، ولو شئت أن أقول لقلت: إنَّ سر الحياة الإنسانية وينبوع وجودها، وكوكبها الأعلى الذي تبعث منه جميع أشعتها، ينحصر في كلمة واحدة: «قلب الأم».

لا يستطيع الرجل أن يكون رجلًا حتى يجد إلى جانبه زوجةً تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة، وتغرس في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها. وحسب المرء أن يعلم أنه سيدٌ، وأنَّ له رعية كبيرةً أو صغيرةً تضع ثقتها فيه، وتستظل بظل حمايته ورعايته، وتعتمد في شئون حياتها عليه، حتى يشعر بحاجته إلى استكمال

جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه. فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذًا حتى يتم له ما يريد. وما نصح الرجلَ بالجد في عمله، والاستقامة في شئون حياته، وسلوك الجادة في سيره، ولا هداه إلى التدبير ومزاياه، والاقتصاد وفوائده، والسعي وثمراته، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة، والدأب والمثابرة، مثلُ دموع الزوجة المنهلة، ويدها الضارعة المبسوطة.

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف والحب والإيثار ما يجد في قلب ابنته الفتاة؛ فهي التي تمنحه يدها عكازًا لشيخوخته، وقلبها مستودعًا لأسراره وهواجس نفسه، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه، وتصغي إلى أناته، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من حركات يديه ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه. فإذا نزل به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعًا الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظيمة، لا يهونها عليها ولا يخفف من لوعتها في نفسها أنه قد ترك من بعده ميراثًا عظيمًا. وكثيرًا ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون، ويشتجرون في الساعة التي يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات باكيات.

وجملة القول أنَّ الحياة مسرات وأحزان. أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة؛ لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه. وأما

أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها إلى مسراتٍ، أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل، فكأننا مدينون للمرأة بحياتنا كلها.

وأستطيع أن أقول - وأنا على ثقة مما أقول: إنَّ الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنيًّا بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم، أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد أمهاتهم، وللرحمة الأموية الفضل العظيم في ذلك.

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها إلينا وجازيناها بها خيرًا؟ لا لا؛ لأننا إن منحناها شيئًا من عواطف قلوبنا وخوالج نفوسنا، فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والإجلال، وهي إلى نهلةٍ واحدةٍ من نهلات الإجلال والإعظام أحوج منها إلى شؤبوبٍ متدفقٍ من الحب والغرام.

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد لا رحمة الصديق بالصديق. وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا أنها عفة الخدر والخباء، لا عفة النفس والضمير. وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق في الوصول إلى ذروة الإنسانية التي تريدها، والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها؛ بل لنعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة، أو لنتخذ منها ملهاةً لأنفسنا، ونديمًا لسمرنا، ومؤنسًا لوحشتنا؛

أي إننا ننظر إليها بالعين التي ننظر بها إلى حيواناتنا المنزلية المستأنسة، لا نسدي إليها من النعم ولا نخلع عليها من الحلل إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطةً وسرورًا.

إنها لا تريد شيئًا من ذلك، إنها لا تريد أن تكون سُرِّيَّة الرجل ولا حظيته، ولا أداة لهوه ولعبه، بل صديقته وشريكة حياته.

إنها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل، فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه.

إنها لم تخلق من أجل الرجل، بل من أجل نفسها، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه.

يجب أن ينفس عنها قليلًا من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كيانًا مستقلًا، وحياةً ذاتية، وأنها مسئولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها، لا أمام الرجل.

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح، وتستروح رائحته الأريجة، ليستيقظ ضميرها الذي أخمده السجن والاعتقال من رقدته، ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ومراقبة حركاتها وسكناتها، فهو أعظم سلطانًا وأقوى يدًا من جميع الوازعين والمسيطرين.

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها، ومن احترم نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات.

لا يمكن أن تكون العبودية مصدرًا للفضيلة، ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدرًا للنور، والموت علةً للحياة، والعدم سلمًا إلى الوجود.

كما لا أريد أن تتخلَّع المرأة وتستهتر، وتهيم على وجهها في مجتمعات الرجال وأنديتهم، وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها، كذلك لا أحب أن تكون جاريةً مستعبدةً للرجل، يملك عليها كل مادةً من مواد حياتها، ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير.

وبعد، فإما أن تكون المرأة مساويةً للرجل في عقله وإدراكه أو أقل منه. فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق والنظير للنظير، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده؛ أي إنه يعلمها ويدربها، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذي هو فيه، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفي، والعشير الكريم. والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله، والأب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه.

الانتقام

«مترجمة»

١

قضى المسيو «كابريني» برهةً طويلة من أيام حياته سعيدًا مغتبطًا بزوجةٍ جميلة وثروةٍ صالحة وخلق طيب شريف يحببه إلى الناس جميعًا. ثم نكبه الدهر نكبةً عظيمةً ذهبت بماله وبزوجته، فبكاهما ما شاء الله أن يفعل، ثم بلَى حزنه كما تبلَى جميع الأحزان في قلوب الناس، ولم يجد بدًّا من أن يعيش لابنته «إيلين» ليتولى تربيتها وإسعادها.

فالتحق بمصرفٍ من المصارف المالية بمرتب قليل، ثم لم يزل يجد ويجتهد في خدمة العمل الذي وكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلًا لذلك المصرف. فكان يعمل فيه سحابة نهاره ثم يعود ليلًا إلى منزله فيرى ابنته منهوكةً مضعضعة لكثرة ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومناظرة شئونه. فرأى أن يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها، ففعل. وكان سيئ الحظ في اختياره، فتزوج من امرأةٍ فاسدةٍ خليعة، لا همَّ لها في حياتها سوى ترفيه عيشها، وتدليل نفسها، والتقلب بين أعطاف شهواتها ولذائذها. فلم ينتفع منها بشيء، بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه. ولكن

ماذا يعمل وقد وضعت السلسة في عنقه وانتهى الأمر، وأصبحت ابنته - بعد أن كانت سيدة بيتها وأميرة نفسها - أسيرةً في يد امرأةٍ قاسية داهية، تسومها أنواع الخسف وألوان العذاب. فكانت تحتمل ذلك كله بصبرٍ وجلدٍ، وكانت تكتمه أباها كتمانًا شديدًا ضنًّا براحته وسكونه. بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها، رحمةً به وإشفاقًا عليه.

وكثيرًا ما كان يعود إلى منزله في بعض لياليه حاملًا بعض دفاتر المصرف في يده ليتمم فيها العمل الذي أعجله الوقت عن إتمامه هناك. فيجلس إلى مكتبه ساهرًا ليله، مكبًّا على عمله، ذائدًا النوم عن عينيه حتى يغلبه على أمره، فينام في مكانه والقلم معلقٌ بين أصابعه في الساعة التي تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وعشرائها في بعض الملاعب أو الحانات راقصةً لاهيةً، عابثةً بجميع الفضائل الإنسانية. فإذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت إليه برفق وهدوء، وجلست على كرسي أمامه، واجتذبت إليها الدفتر الذي بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه. ثم توقظه بعد ذلك لينام في فراشه، فيشكر لها يدها ومعونتها، ثم يسألها سؤال المتعض المتمرمر: ألم تعد فلانة حتى الآن؟ فتجيبه أن لا، فيذهب إلى سريره حاملًا بين جنبيه من الهم والألم ما الله به عليم.

وجملة القول أنَّ الرجل كان شقيًّا منحوسًا، يسير من شئون حياته في ظلمةٍ داجية لا ينتهي بصره فيها إلى مدًى، ولا يرى في

سمائها نجمًا يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذي كان يلمع من حين إلى حين في جبين ابنته الراحمة الشفوقة، فيتنفس أمامه تنفس الراحة، ويأذن لفمه أن يبتسم في ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور.

فإنه لجالس ذات يوم في غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه إليه مديره وأعطاه ورقةً ماليَّة، قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة، ويسجلها في دفاتر المصرف. فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته، ووضعها على مكتبه، وتناول الدفتر ليقيدها، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له: إنَّ فتاةً من هيئتها كيت وكيت واقفةٌ بالباب تسأل عنك، وهي تكتم اسمها، وتأبى الدخول إلى هنا. فاضطرب اضطرابًا شديدًا، ومر بخاطره أنها ابنته، وأنَّ حادثًا عظيمًا حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه في المصرف وما حضرت إليه قبل اليوم. فترك كل شيءٍ في مكانه وخرج مسرعًا ليراها، فإذا هي بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياء والخجل، وإذا بيدها كتاب تحمله إليه من زوجته، فاختطفه منها وقرأه، فإذا هي تقول له فيه: إنها تريد أن يرسل إليها في هذه الساعة أربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حليةً جميلةً رأتها في بعض المخازن، وإنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غدًا. فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم، وأخذ ابنته ناحية وقال لها: بلغيها أنني لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غدًا، ولا أستطيع ذلك العام كله. ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها إليه في المصرف،

وكان لا يحب ذلك منها، فأطرقت برأسها، ولم تقل شيئًا؛ لأنها لا تستطيع أن تقول له: إن زوجته هي التي أرغمتها على ذلك، فتزيد همومه همًّا جديدًا، ثم عادت أدراجها.

وكان بين عمال المصرف عامل سيئ الأخلاق، فاسد النفس والضمير، ما زال مذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله، علَّه يتوصل إلى اختلاس شيءٍ من المال. فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدم إليه بعض الأوراق فلم يجده، ولمح الورقة المالية التي تركها على المكتب، فحدثته نفسه باختلاسها، فدار بنظره هاهنا وهاهنا ثم انقض عليها ووضعها في جيبه، وخرج متسللًا لم يشعر أحدٌ بدخوله ولا بخروجه، وما هي إلا لحظة حتى عاد المسيو «كابريني» وفي يده الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته فمزقه وألقى به في السلة، ثم ألقى نظره على المكتب فلم يرَ الورقة المالية حيث تركها، فذعر ذعرًا شديدًا، وأخذ يفتش عنها في كل مكانٍ فلم يجدها، فاشتد حزنه وهمه، وأخذ يسأل العمال والخدم عمن دخل غرفته في غيابه فلم يعترف له بذلك أحد. فظل يصرخ صرخاتٍ عظيمةً تقيم المصرف وتقعده، فسمع المدير الضوضاء، فحضر ليرى ماذا حدث، فأفضى إليه الرجل بالقصة كما هي لم يكتمه منها شيئًا، إلا أنه لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التي جاءت بها ابنته ضنًّا بأسراره البيتية أن يعلمها أحدٌ غيره. فارتاب به الرجل، وما كان يعتد عليه بسيئة قبل اليوم،

ولا يعرف له ماضيًا مريبًا، ولكنه كان يعلم أنه فقيرٌ مقلٌّ، فظن به الظنون.

وقديمًا كان الفقر ينبوع التهم، ومثار الشكوك والريب، وتركه مكانه وخرج إلى العمال والخدم يحادثهم في هذه الشأن علَّه يصل إلى معرفة الحقيقة، فأخبره البواب أنَّ الفتاة التي حضرت إليه كانت تحمل في يدها كتابًا، وأنه أخذها جانبًا وأسرَّ إليها حديثًا لم يسمع منه شيئًا، فازداد شكه وارتيابه، وعاد إليه فوجده واقفًا في مكانه مذهولًا يقلب كفيه. فلم يقل له شيئًا، وأخذ يدور بعينيه في أنحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق علَّه يعثر بذلك الكتاب الذي أخبره به البواب فلم يجده، فألقى نظره على السلة فرأى تلك المزق الصغيرة فجمعها فإذا هي الكتاب الذي يريده. فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرةً شزراء وقال له: إني أتهمك يا مسيو كابريني بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها إلى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلية الجميلة التي أعجبتها، فدهش الرجل دهشةً عظيمةً، وورد عليه ما طار بلبه وأخذ عليه أنفاسه، فصمت لحظةً، وبعد لأيٍ ما استطاع أن يقول له: نعم إنها أرسلت إليَّ هذا الكتاب ولكنني لم أحفل به، ولم أرسل إليها شيئًا، بل رددتها ردًّا قبيحًا؛ لأنني رجل فقير لا أملك هذا المقدار، ولأنني رجل شريف لا أختلسه. فلم يحفل المسيو «لورين» بدفاعه ولم يرثَ لضراعته واسترحامه، ولم يلبث أن رفع أمره إلى القضاء. فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل

في السجن، وكانت ابنته المسكينة في حال من الهم والحزن تستثير الأشجان، وتستذرف العبرات. أما زوجته فلم يكن يهمها في تلك الساعة شيء سوى السعي للحصول على ثمن الحلية الجميلة من طريقٍ غير هذا الطريق.

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه، ولا دفاع ابنته عنه، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه؛ لأن القضاة لا يستطيعون أن يصدقوا أنَّ رجلًا عظيمًا سريًّا مثل المسيو «لورين» صاحب المصرف المشهور يكذب أو يلفق، أو يخطئ في فراسته وتقديره، وأنَّ رجلًا فقيرًا مقلًّا مثل المسيو كابريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل إلى ذلك. وكثيرًا ما ساقت أمثال هذه الأقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون، وقضت عليهم وعلى أهليهم القضاء الأخير، كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم. فإن قاضي التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته حتى اقتنع بإجرامه وأحاله إلى محكمة الجنايات.

فاستطير عقل «إيلين» وجنَّ جنونها فلم تجد بدًّا من أن تذهب إلى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها، وتضرع إليه أن يساعدها على خلاصه، فذهبت إليه في منزله فاستأذنت عليه فأذن لها فدخلت، فدهش دهشة عظيمة حين رأى أمامه فتاةً جميلةً بارعة، بل آية من آيات الحسن والجمال، لا عيب فيها إلا أنها نحيلة صفراء

متضعضعة. وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلي الجمال، فافتتن بها حين رآها، إلا أنه أخطأ في الحكم عليها كما أخطأ من قبل في الحكم على أبيها، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها، فأخذ يحدثها في الشأن الذي جاءت من أجله، ثم ذهب معها في الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين؛ لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم، فأخذ وجهها يَرْبَدُّ شيئًا فشيئًا، ثم انتفضت انتفاضة الليث في غيله، وألقت عليه نظرةً هائلة لو ألقتها على رجل غيره لَصُعِقَ في مكانه. ولكنه كان رجلًا وقاحًا متبلدًا فلم يحفل بنظرتها، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها، فدافعت عن نفسها دفاعًا شديدًا حتى عجزت، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها، فدارت بنظرها في أنحاء الغرفة تتلمس سبيلًا إلى الخلاص، فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته، فاختطفته لتهدده به، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته في ذراعه، فصرخ صرخةً عظيمة، وما هي إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها، وسيقت إلى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو «لورين» في منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها؛ فأخرجت مسدسًا كانت تخفيه في طي ردائها، وأطلقته عليه لتقتله، فلم تصبه إلا في ذراعه.

وقد كان في استطاعه المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التي يعرفها حق المعرفة فلم يفعل، ولو فعل لما ضره ذلك شيئًا، وما هي

إلا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين، وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين.

٢

دخلت «إيلين» سجن النساء لتقضي فيه المدة المقدرة لها، ووضعت في غرفةٍ واحدةٍ مع امرأةٍ عجوز ساقطة، قضت جزءًا عظيمًا من حياتها في هذا المكان المظلم القاتم، حتى ألفته وجمدت نفسها عليه، فلم تعد تحفل بشيء في هذا العالم، ولا تفكر إلا في الساعة التي يُقدَّم فيها إليها الطعام فتلتهمه التهامًا، وهي تضحك وتتغنى كأنما هي سعيدة هانئة، وكأنها أبعد الناس عن الهموم والأحزان. فذعرت إيلين حين رأتها ذعرًا شديدًا، وتسللت إلى زاويةٍ من زوايا الغرفة فقبعت فيها، واستسلمت لهمومها وأحزانها، ولم تدع قطرة من الدموع في عينها إلا ذرفتها، وأبت أن تتناول الطعام الذي قدمه إليها السجان، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها. فبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها، فعمدت إلى كتابٍ صغير من كتب الأخلاق كانت لا تزال تحمله في جيبها ما تفارقه، فأخرجته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته، فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة «العفو أشد أنواع الانتقام.» فانتفضت عند قراءتها انتفاضًا شديدًا، وعلق نظرها بها ما ينتقل عنها، وأخذت تراجع الحوادث التي مرت بها وتستعرضها واحدةً بعد أخرى، وتفكر في المظالم التي نالتها ونالت أباها، وما اقترفا ذنبًا، ولا جنيا

على أحدٍ حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء. فشعرت بدبيب الشر في نفسها للمرة الأولى في حياتها، وظلت تقول في نفسها: إنَّ الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات إنما كانوا يعيشون في عصر غير هذا العصر، وبين ناس غير هؤلاء الناس، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم في العالم وأهليه رأيٌ غير هذا الرأي، ولما اجترءوا على المجازفة بتدوين هذه الأفكار في كتبهم؛ لأن العفو لا يكون انتقامًا إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التي يقلقها الذنب ويخجلها العفو والتي تصدر عنها سيئاتها زلاتٍ وهفوات، أما الضمائر القاسية المتحجرة التي لا تعبأ بشيءٍ، ولا تخجل من شيءٍ، فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمردًا وطغيانًا.

وإنها لذاهبةٌ هذه المذاهب الغريبة في تصوراتها وخيالاتها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى اختلاسًا حتى وقفت وراءها ونظرت في الصفحة التي تنظر فيها، فوقع نظرها على تلك الكلمة التي تنعم النظر فيها، فقهقهت ضاحكة بصوتٍ عالٍ غريب، فارتعدت «إيلين» والتفتت وراءها صارخة: ماذا تريدين يا سيدتي؟ قالت: لا تخافي يا بنيتي ولا تراعي، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار، ولكني رأيتك مستغرقةً في هذا الكتاب لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك: دعي الكتب وشأنها لا تحفلي بها، ولا تعولي علي شيءٍ فيها، فإن أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون من شئونه شيئًا

إلا كما نفهم نحن من شئون عالم الجن أو سكان المريخ، بل هم قوم معتوهون ممرورون، قضوا أيام حياتهم في معتزلاتهم الخاصة المظلمة التي لا توجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه، فملوا وسئموا، وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم ويتلهوا بما يسري عنهم مللهم وسآمتهم، فأخذوا يدونون هذه المبادئ التي انتزعوها من جوانب أدمغتهم لا من طبيعة المجتمع الذي يحيط بهم، ويقررون الآراء التي يستحسنونها ويعجبون بها، لا التي تتفق مع طبيعة الكون وخصائصه، فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه، ثم يخيل إليهم أنه قد أقلع ونزع، فيطلبون إلى من أجرم إليه أن يعفو عنه، قائلين له: «إنَّ العفو أشد أنواع الانتقام.» كأن الفضيلة عندهم هي الحالة الأساسية للنفوس، وكأن الإجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها، لا تلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظة والاعتبار حتى تذهب به. فما أسخف عقولهم، وما أقصر أنظارهم، وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة وطبائع النفوس!

دعي الكتب يا بنيتي لا تنظري فيها، وانزعي عنك همومك وأحزانك، وكلي الطعام الذي يقدم إليك هانئةً مغتبطةً لا تلوين على شيءٍ مما وراءك، فسيأتي قريبًا أو بعيدًا ذلك اليوم الذي يفتح لك فيه هذا الباب الموصد دونك، فتخرجين إلى الانتقام من الرجل الذي أساء إليك وساقك إلى هذا المكان، وتنالين منه فوق ما نال منك، كما سأفعل أنا يوم خروجي بالرجل الذي ساءني وأفسد عليَّ

حياتي، فليس العفو أشد أنواع الانتقام كما يقولون، بل الانتقام أعظم ملاذِّ الحياة.

فهدأت نفس «إيلين» قليلًا، واستطاعت أن تتناول شيئًا من الطعام الذي قدم إليها، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت أباها في منامها يقاسي أنواع العذاب وصنوف الآلام في سجنه، فتصبح باكية نادبةً، لا يهون عليها آلامها بعض التهوين إلا ثرثرة تلك العجوز وهذيانها. حتى نامت ذات ليلة فرأته ميتًا على سرير من أسرة مستشفى السجن، تحيط بجثته شمعتان مضيئتان، فاستيقظت فزعةً مذعورةً تبكي وتنتحب، وما هي إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن، فذهبت إليه، فأبلغها أن أباها توفي الليلة في المستشفى، فصعقت صعقةً كادت تذهب بنفسها، ثم استفاقت فإذا هي في غرفة سجنها. فإذا هي أشد عباد الله بؤسًا، وأعظمهم شقاء.

٣

قضت «إيلين» سنواتها الخمس في سجنها ثم خرجت فمشت معها رفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها: لا تنسي يا بنيتي أن تنتقمي من عدوك الذي أساء إليك، وتنكلي به تنكيلًا عظيمًا، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوي مثلك، وهل لمثلي ومثلك في هذه الحياة الشقية البائسة عزاءٌ غير عزاء الانتقام؟

فودعتها وانصرفت، لا تعلم أين تذهب، ولا أي طريق تسلك، بل لا تعلم أين تجد قوت يومها، أو المضجع الذي تأوي إليه سواد

ليلتها، فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها، وطبع على جبينها «المجرمة» التي خرجت به من سجنها.

ولم تزل سائرةً عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب، وأحست بالجوع يعبث بأحشائها، فحدثتها نفسها بالانتحار فرارًا من الألم، وزهدًا في الحياة وظلت تترجح ساعة بين الأنس بهذا الخاطر والنفور منه حتى غلبها على أمرها، فأخذت طريقها إلى النهر، وكانت الليلة داجيةً مكفهرة، تلمع بروقها، وتهطل غيومها، وتدمدم رعودها، وتعصف رياحها، فاستمرت أدراجها حتى إذا لم يبقَ بينها وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبةٍ مقبلة نحوها من بعدٍ يمزق نور مصباحيها المشتعلين أحشاء الظلمات، فتريثت هنيهة في مكانها حتى مرت المركبة بها فإذا المسيو «لورين» جالسًا بين بضع فتيات خليعاتٍ يعابثهن ويداعبهن، ويقهقه قهقهةً عالية ترن في أجواز الفضاء، فاختبأت وراء بعض الأشجار حتى مر، ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول: ها هو ذا المجرم سعيدٌ في حياته، مغتبط بحظه، يتقلب في أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منغصٌ، ولا يكدر حياته مكدر، وهأنذا البريئة الطاهرة التي لم ألوث يدي في حياتي بجريمة، ولم أقترف بيني وبين ضميري إثمًا، أهيم في هذا الوادي الفسيح على وجهي، لا أعرف لي ملجأ، ولا مأوًى، ولا أعرف سبيلًا للعيش ولا مذهبًا، ولو عرفت لما استطعت أن أنتفع بمعرفتي؛ لأنني عند

الناس مجرمة قاتلة، ومن ذا الذي يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين أو يعطف على بأسائهم وضرائهم؟

لا لا، لا بدَّ أن أعيش، ولا أبد أن أنتقم، وما دامت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم.

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة، وقد ودعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التي ملأت فضاء نفسها طول حياتها، وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألئ الذي لبسته مذ برزت إلى الوجود حتى اليوم - ثوب الشرف والكرامة والطهارة والأدب - واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفسٍ أخرى غيرها لا صلة لها بها، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس مع أحد العمال المريبين هادئةً ساكنة، باسمةً متطلقة، لم يبقَ في وجهها من دم الحياء إلا قطرات، قد أخذ لونها يستحيل شيئًا فشيئًا إلى لون البياض لتلحق بأخواتها.

٤

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة في تلك الهوة التي حفرها المجتمع الإنساني لأمثالها من الفتيات البائسات، فظلت تنتقل من يدٍ إلى يد، ومن مضجع إلى مضجع، وكأن الحظ الذي فارقها وتجهم لها في حياة الطهارة والعفة أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل في حياة السقوط والفساد، فما هي إلا أيام قلائل حتى

طلعت في سماء باريس نجمًا ساطعًا متلألئًا تنير كل أفق تشرق فيه، وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها، وتعبث بألباب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار.

فإنها لجالسة ذات ليلة في مقصورةٍ من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية في جمع من أصدقائها المفتتنين بها، إذ وقع نظرها على خصمها المسيو «لورين» جالسًا في المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته، فانتفضت حين رأته، وثارت في نفسها ثائرة الغيظ والحنق، وظلت تردد النظر في وجهه طويلًا، فلمحها وهي تنظر إليه، فأعجبه منظرها البارع الجميل، إلا أنه لم يعرفها، فقد تغير كل شيءٍ فيها حتى ملامحها وشمائلها. فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعًا وذهب يرود حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه في دهليز المقاصير فسأله عنها، فأخبره أنها السيدة «لوسي» المارسيلية الحسناء، أجمل فتاة وفدت إلى باريس في هذا العام. فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل، فأحسنت ملتقاه، وقد أضمرت له في نفسها شر ما يضمر عدوٌّ لعدوه، وأقبلت عليه تحدثه وتتلطف به، وتمد له الحبالة التي اعتادت أن تمدها كل يوم لأمثاله، فما لبثت أن وقعت من نفسه، وملكت عليه جميع مشاعره، ثم رفع الستار فاستأذنها إلى مقصورته، وقد حلت من قلبه محلًّا لم يحله أحدٌ قبلها.

وفي صباح اليوم الثاني أرسل إليها مع بعض رسله باقةً جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقدًا بديعًا من اللؤلؤ الثمين،

فابتهجت به حين رأته، لا لأنها في حاجة إلى العقود والدمالج؛ بل لأنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذي تقوده به إلى الهلاك. ثم زارها على الأثر وخر جاثيًا تحت قدميها مقدمًا لها قلبه وحياته، وكل ما تملك يده؛ أي إنه جثا تحت قدمي تلك الفتاة البائسة المسكينة التي جثت تحت قدميه منذ سنواتٍ تسأله أن يساعدها على فكاك أبيها من سجنه وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه، إن كان يعتقد أنه مذنب، فلم يفعل، ولو أنه فعل لابتاع بثمنٍ قليلٍ لا يوازي ربع ثمن العقد الذي قدمه الآن إليها قلبًا طاهرًا نقيًّا، لم تَلوثه الذنوب والآثام، ولم تعبث به الأهواء والشهوات، وعاش عيشًا طاهرًا شريفًا مع خير الزوجات وأفضلهن خلقًا وخُلُقًا. ولكن هكذا قدر لهؤلاء المساكين الضعفاء أن يضنوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة، حتى إذا لوثتها الذنوب والآثام وأصبحت نهبًا مقسمًا في أيدي الشهوات، بذلوا في سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم، حتى شرفهم وحياتهم، فقد ابتاع المسيو «لورين» لخليلته الجديدة قصرًا جميلًا أثثته أثاثًا حسنًا، ونزل على حكمها في كل ما تريد وتشتهي، حتى أنفق عليها في عام واحد كل ما تملك يمينه، ثم اضطر أن يعبث بودائع الناس المودعة في مصرفه، فمشى في ذلك المزلق المنحدر مدًى بعيدًا أشرف منه على الخطر العظيم.

ثم حدث بعد ذلك أن فتحت سوقٌ للإحسان في باريس، وكانت «لوسي» إحدى النساء اللواتي وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار

فيها، وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الإطلاق، فجلست في حانوتها المعد لها، وقد أمسكت بيدها زهرةً تعرضها للبيع، وتعد من يبتاعها منها أن يتناولها بفمه من فمها، فازدحم حولها كثيرٌ من الأغنياء يتزايدون في ثمن تلك الزهرة، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت «مارسيال» فعرض فيها خمسمائة فرنك، فقالت: لا أبيعها إلا بألف، فأمسك الكونت، وأمسك الناس جميعًا، وإنهم لكذلك إذ بالمسيو «لورين» يتقدم بهدوء وسكون وفي يده ورقة بألف فرنك، فوضعها بين يدي لوسي، وقال لها: لا يبتاع منك زهرتك يا سيدتي أحدٌ سواي، فوضعتها بين ثناياها، فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعًا، وخاصة الكونت مارسيال، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول: ما رأيت في حياتي صاحب مصرفٍ يذهب في حياته هذا المذهب من البذخ والإسراف، ويبعثر المال بلا حيطةٍ ولا حذرٍ كهذا الرجل، وما أحسب أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا، فلا بدَّ أن يكون لصًّا دنيئًا يسرق ودائع الناس ويبددها، فويل للمساهمين في مصرفه، ورحمة الله على أموالهم جميعًا. وكان يتكلم بصوت عالٍ يسمعه الناس جميعهم، وليس بين الأحاديث حديثٌ أسيَر ولا أذيَع من حديث السوء! فمشت كلماته في المجتمعات العامة والخاصة، فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطرابًا عظيمًا، ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف، فهالهم الأمر، وأشفقوا على

سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه الأراجيف فيسقط سقطة لا قيام من بعدها، فقرروا الاجتماع في يوم معين لمراجعة حسابه، وتفقد أمواله.

فلما علم ذلك المسيو «لورين» أخذ يزوِّر في الصكوك، ويعبث بدفاتر الحساب. طلبًا للخلاص من التبعة، فلم يُجدِه ذلك شيئًا، فقد فهم مجلس الإدارة كل شيءٍ، فلم يرَ بدًّا من أن يرفع الأمر إلى القضاء، ففعل. والمسيو «لورين» مستغرق في شهواته ولذاته، جاثٍ ليله ونهاره تحت قدمي خليلته، لا يشعر بشيء مما يجري حوله. لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على جلية الخبر فزاره في منزله ليخبره به فلم يجده، فذهب إلى منزل «لوسي» فوجده، فأخبره أنَّ الأمر قد صدر بالقبض عليه، وأنه إن لم يبادر بالسفر في الحال فقد هلك إلى الأبد. فأشار إلى «لوسي» أن تعد له حقيبة ملابسه، وأن تهيئ نفسها للسفر معه، وهو أعظم الناس ثقة بها، وبحبها وإخلاصها، فتظاهرت بالإذعان لأمره والرثاء له، ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة «التليفون» وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب، وأشارت عليه بإرسال من يقبض عليه في الحال.

ثم أمرت الخدم بإغلاق الأبواب والوقوف في وجهه إن أراد الفرار، ثم عادت إليه، فسألها: هل أعددت كل شيء؟ فنظرت إليه نظرةً غريبةً لم يفهم معناها، ثم انفجرت ضاحكةً بصوتٍ عالٍ،

فدهش وسألها ما بالها، قالت: لا شيء سوى أنك ستبقى سجينًا هنا حتى يأتي رئيس الشرطة للقبض عليك، ثم ألقت عليه نظرةً مخيفةً هائلة، فعجب لأمرها، ولم يعلم أمازحة هي، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون، ووثب من مكانه مسرعًا ودنا منها وقال لها: ماذا عرض لك يا لوسي؟ فقد طلبت إليك أن تهيئي نفسك للسفر معي، فهل فعلت؟ لقد دنت الساعة، ولسنا الآن في موقف مزاح وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة، فضحكت ضحكةً أخرى، وقالت: قد بلغت رئيس الشرطة أنك عازم على السفر، وأشرت عليه أن يبادر بإرسال الجنود ليقبضوا عليك، وأمرت الخدم بإغلاق الأبواب حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم. فجنَّ جنونه، وقد بدأ الريب يدب في نفسه، وإن لم يفهم لما يرى سببًا، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه، فوجده مغلقًا، فأمرها أن تفتحه، فأبت، فهجم علها هجمةً شديدةً وهو يصيح: أين المفتاح أيتها العاهرة؟ فقالت: أتريد أن تقتلني كما قتلت أبي بالأمس؟ فلم يفهم معنى كلمتها، ووقف في مكانه ذاهلًا يقول لها: لم أفهم من أمرك شيئًا، ماذا تريدين؟ ومن هو أبوك؟ قالت: هو المسيو «كابريني» – وكيل مصرفك بالأمس – الذي اتهمته ظلمًا وعدوانًا بالسرقة، وأنت تعلم أنه رجلٌ شريف مستقيم لو علم أنَّ شرب الماء يفسد مروءته ما شربه، فكانت نهاية أمره أن مات في سجنه ميتة الأشقياء البؤساء، لا يعوده من أهله عائدٌ،

ولا يحتضنه إلى صدره في ساعة نزعه محتضن، ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه وصيته الأخيرة.

فاصفر وجه «لورين» وظل جسمه يرتعد ارتعادًا شديدًا وأخذ يحدق النظر في وجهها، ويتراجع شيئًا فشيئًا، ويقول بصوت مضطرب متقطع: إذن أنت لست... فقاطعته وقالت: نعم لست حبيبتك «لوسي» كما تعتقد، بل عدوتك «إيلين» التي تريد أن تنتقم منك لفجيعتها في أبيها وفي نفسها، أنا إيلين التي جثت تحت قدميك منذ سبعة أعوام تسألك أن ترحم أباها وترحمها، فأبيت إلا أن تساومها في عرضها، فلما ضنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذبًا وافتراءً كما صنعت بأبيها من قبلها، فصدق القضاة الأغبياء دعواك، فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات، كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يستطيع أن يحتمله بشرٌ. ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيءٍ، من بيتها وأهلها وكرامتها وشرفها، وكل ما تملك يدها من القوت الذي تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلتها. وكان لا بدَّ لها من المغامرة بنفسها في إحدى الهوتين: إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها، أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذي نكبها، وأفسد عليها حياتها، فآثرت الانتقام على الموت؛ لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفسٍ شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبني سعادته على أنقاض شقائها، وأن يفلت

من العقوبة التي هي النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام، وها هي ذي قد انتقمت لنفسها، وروحت عنها همومها وآلامها.

فنكس رأسه مليًّا ثم رفعه وقال: إذن ما أحببتني قط يا لوسي؟ قالت: نعم، بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك إلى هذا المصير الذي صرت إليه اليوم، أنت الآن متألم جدًّا، بل لا يوجد في العالم كله ألم مثل الألم الذي يعتلج في أعماق نفسك: لأنك فقدت في يوم واحدٍ شرفك وكرامتك، ومالك وحريتك، وموضوع حبك، ووجهة آمالك في حياتك، وهذا ما كنت أريده وأرجوه، وهذه هي الساعة الوحيدة التي شعرت فيها بلذة العيش وهنائه من بين ساعات حياتي.

فنظر إليها نظرةً منكسرةً دامعةً وقال لها: ما كنت لأحفل بخسران شيء في الحياة لو أنني ربحتك يا لوسي، أما وقد أصبحت يدي صفرًا منك فلا خير في العيش من بعدك، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكيًا ما تهدأ دموعه، ولا يفتر نشيجه، حتى حضر الجند فاعتقلوه، وساقوه إلى سجنه وهو صامت واجمٌ لا يرفع طرفه، ولا يلتفت وراءه، وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتى انقطع أثره.

٥

نعم، إنَّ الانتقام لذيذ جدًّا كما يقولون، ولكنه اللذة التي يعقبها الندم والأسف، وتأتي على أثرها الحسرات والآلام، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه

ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تبدأ نفس القاضي العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التي يراها، والفرق بينهما أنَّ القاضي يصدر في رأيه عن نفسٍ هادئة مطمئنة، قادرة على الروية والأناة والمقارنة والمقابلة، والوزن والتقدير، والمنتقم يصدر في عمله عن روح هائجةٍ محتدمة لا همَّ لها إلا أن تلتهم وتستأصل، وتأتي على كل ما تستطيع الإتيان عليه. فهو يقضي قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه، بل ليجرح نفسه ويؤلمها، وينال منها أقصى ما يرى أنه كافٍ لشفاء حقده وإطفاء غلته، فيجازي على الشتم بالضرب، وعلى الضرب بالقتل، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل. ولا يأبى أن يأخذ البريء بذنب المجرم، والجار بذنب الجار، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه، والدافع له، وكل جريمة تترك في نفس صاحبها نصيبًا من الألم والحسرة بمقدارها، ما من ذلك بد، ولقد صدق الذي يقول: إنَّ العفو مرارة ساعة، ثم النعيم إلى الأبد، وإنَّ الانتقام لذة ساعة، ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى.

عادت «إيلين» إلى غرفتها بعد ذهاب «لورين»، وكان الليل قد أظلها، فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية، وتقلب صفحاتها صفحةً صفحة، فشعرت بدبيب السآمة والملل في نفسها، وخيل إليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشةً تافهةً مملولةً لا طعم لها، ولا لذة فيها، ورأت كأن سحابةً سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو

منها شيئًا فشيئًا، وأخذت تسائل نفسها: هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت؟ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت؟ وهل كان خيرًا لها أن تلقي بنفسها في عباب الماء عندما فكرت في ذلك يوم خروجها من سجنها، أم تعيش لتضحي بعرضها وكرامتها في سبيل انتقامها؟ وهل خرجت من المعركة التي خاضتها ظافرةً تمام الظفر، أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذي انتصرته؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الأسئلة فلا تسمع جوابًا يرضيها، حتى مضى الليل إلا أقله، فحاولت أن تأوي إلى مضجعها فلم تستطع، وأن تسري عن نفسها بعض همومها فأعجزها ما أرادت، فلم تنقضِ دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها أنها مجرمةٌ آثمة، وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها، وأنها لم تسئ إلى الرجل الذي أرادت الانتقام منه بقدر ما أساءت إلى نفسها فقررت الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها، حتى يوافيها أجلها.

٦

دخلت المستشفي، وأخلصت إلى الله في عملها، فسهرت على المرضى وأحسنت مواساتهم، وبذلت في ذلك الجهد ما يعجز غيرها عنه، حتى أصبحت مضرب المثل في صلاحها وتقواها، ورحمتها وإحسانها.

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو «لورين» بالسجن عامين، فلقي في سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله، فسقط مريضًا لا يحفل به أحد، ولا يواسيه مواسٍ، حتى اشتد به المرض، وأشرف على الهلاك، فنقلوه إلى المستشفى الذي كانت تعمل فيه «إيلين» فعرفته حين رأته برغم تغير صورته، واستحالة حالته، فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء، وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به، وظلت على ذلك عدة أيام وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشيء مما حوله، حتى استفاق في ليلةٍ من الليالي فرآها واقفة بجانب سريره تمد إليه يدها بالدواء، فظل يحدق النظر في وجهها طويلًا حتى عرفها، فتناهض من مكانه، وأكب على يدها يقبلها، ويسألها العفو عن ذنبه إليها، فازداد نشيجها وبكاؤها، وقالت له: إنني أنا التي أسأت إليك، وأنا التي أطلب منك العفو والصفح، وكأن حياتها الجديدة التي انتقلت إليها قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها، فلم يبقَ في قلبها أثرٌ للبغض والموجدة، وأصبحت سريرتها بيضاء نقيةً لا تجول فيها غير خواطر الخير والإحسان، ولا تنطوي إلا على حب الإنسانية وحب الله.

وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين بإخلاص لا تضمر مثله الأم لواحدها، وتقوم على خدمته ليلها ونهارها، ما تهدأ ولا تفتر، ولكن الداء كان قد تمكن منه، فلم يغن عنه العلاج شيئًا، وما هي إلا أيام قلائل حتى حضره الموت، فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه،

وتلقي في روعه أنَّ الله قد غفر له جميع سيئاته في حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام، والهموم والآلام، وأنَّ جوار الله في دار جزائه خيرٌ له من جوار هذه الحياة الباطلة الفانية، حتى أسلم روحه بين ذراعيها.

وفي صباح اليوم الثاني رآها الناس سائرةً بهدوءٍ وسكونٍ في طريق الدير، وقد لبست مسوحها وسوادها، وعلقت صليبها على صدرها، حتى بلغته، ففتح بين يديها بابه العظيم الذي لا يخرج منه داخله إلى الأبد، فدخلته، وكان هذا آخر عهدها بالعالم وما فيه.

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق، صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لونه يحمر مرةً، ويصفر أخرى، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه: ما له لا يتكلم فوالله إنه لَلْخَطِيبُ اللبيب؟! فقال له الرجل: لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك عليه، وهو غير ملوم إن جزع.

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول، وأراد يقول كلمةً قصيرةً يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة، فاختنق صوته بالبكاء وأرتج عليه، وهو الرجل الجلد الصبور الذي ما جزع في حياته قط، والخطيب المفوه الذي ما أرتج عليه مرةً في أصعب المواقف وأحرجها، وأذهبها بالعقول والألباب، فما أشبه هذا البطل الباكي، بذلك البطل الجازع.

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفةً وإباءً، حتى إذا نزلت بهم كارثةٌ من الكوارث التي لا أمر فيها إلا الله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شئونهم ما كانوا يضنون به من قبل.

على أنَّ البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها، لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وأنطقهم،

فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة الفصيح، أو نباهة المؤرخ، أو بلاغة الشاعر، أو إبداع المبدع في معانيه، أو إحسان المحسن في إلقائه، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعًا لبكائه كبارًا وصغارًا، شيوخًا وشبانًا، وكان مشهدًا مؤثرًا لم نرَ مثله في حفلة تأبين قبل اليوم، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم من الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوالٍ.

ليس الذي يبكي صديقًا كان يأنس بحديثه، أو عالمًا كان ينتفع بعلمه، أو كريمًا كان يستظل بظلال مروءته وكرمه، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه.

اللفظ والمعنى

لم أرَ فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي أولئك الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلًّا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر، فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أنَّ معانيها ساقطة مرذولة! أو ما أبدع هذه القطعة لولا أنَّ أسلوبها قبيح مضطرب! كأنما يخيل إليهم أنَّ اللفظ وعاءٌ، وأنَّ المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمرًا، وتارة يكون خلًا، ويكون حينًا صافيًا وأخرى كدرًا، والوعاء باقٍ على صورته لا يتغير، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها، فكما لا يجوز أن نقول: ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها، ولا ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها، كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح، أو نعكس ذلك، فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيانٌ مستقل، ولا حيز خاص، فجماله جمال معناه، وقبحه قبحه، وأنَّ القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأنَّ الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أنَّ أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معانٍ شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون.

لا يضطرب اللفظ إلا لأن معناه مضطربٌ في نفس صاحبه، ولا يغمض إلا لأن معناه غامض في نفسه، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثر عن التأثير، ولا المقتنع عن الإقناع، وما البيان إلا المرآة التي ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل، أو قبيحة فهو قبيح، أو مضيئة فهو مضيء، أو مظلمة فهو مظلم، فإذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها، استطعنا أن نتصور بيانًا يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه.

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة:

ولما قضينا من منًى كل حاجةٍ ... ومسَّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولم يعلم الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

إنها جميلة الأسلوب، ولكنها تافهة المعنى، لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير، كأنهم لا يعلمون أنَّ التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيدها، والغاية الأخيرة منها، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة للحجيج في حلهم ومرتحلهم، يسمعها السامع بأذنيه وكأنه يراها بعينيه، فقد أتى بأجمل الأساليب.

وإن وصفًا قصيرًا لحركةٍ صغيرة من حركات النفس كقول الشريف:

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

لخيرٌ ألف مرة من قصيدةٍ طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة، والخواطر المبتكرة، لا تمثل الحقيقة، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها، كقصيدة المتنبي التي مطلعها «أيطمع في الخيمة العذل» ويقولون أيضًا عن هذا البيت:

أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم واهمون فيما يقولون، فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت، بل المعنى الذي خطر على أذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه، فألصقوه به إلصاقًا، وتوهموه له توهمًا، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقًا، وهذا شأن جميع المعاني الذي يتوهمها متوهموها عند سماع بيتٍ مستغلقٍ، أو كلمة غامضة، فهي بأن تكون معاني السامعين أولى من أنْ تكون معاني القائلين.

إذا سمعت بيتًا من الشعر فأطربك، أو أحزنك، أو أقنعك، أو أرضاك، أو هاجك وأنت ساكن، أو هدأ روعك وأنت ثائر، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك، كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في نفس سامعها، فاعلم أنه من بيوت المعاني، وأنَّ هذا الذي تركه

في نفسك من الأثر إنما هو روحه ومعناه، وإن مررت ببيتٍ آخر فاستغلق عليك فهمه وثقل عليك ظله وشعرت بجمود نفسك أمامه، وخيل إليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها، فاعلم أنه لا معنى له، ولا حياة فيه، فإن وجدت صاحبه واقفًا بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نورًا متوهجًا يكمن في طياتها، فكذبه، وفرَّ بنفسك وأدبك منه فرارًا لا عودة لك من بعده.

هذا هو الميزان الذي يجب أن تزن به الكلام، ونصيحتي إليك ألا تصدق تعريفًا واحدًا من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة، ويزعمون أنها للشعر عامةً، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع، فكما أنك لا تعتمد على تعريفٍ من تعريفات الجمال، ولا تلجأ إلى قانونٍ من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأةٍ لمعرفة درجتها من الحسن، كذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام واستهجان ما تستهجن منه إلا على شعور نفسك وإلهام حسك.

***

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء، ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف، وحسن التصوير، وتمثيل الحقيقة، واكتناه أسرار الكون، وتحليل مشاعر النفس، وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد، على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها، والروح السارية فيها،

ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحججها وبراهينها، والشعر غذاء النفس برناته ونغماته، وأهازيجه ونبراته.

نظم الشعراء الشعر من عصر الجاهلية الأولى إلى اليوم، فمات جميع ما نظموا ولم يبقَ منه إلا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنِّه مغنيه لغنى وحده، وسيموت شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في المستقبل إلا كما بقي من الماضي في الحاضر.

الآداب العامة

يتحدث كثيرٌ من الناس عن فئةٍ من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام، واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقًا غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه، فأصبحوا متبذلين في شهواتهم، مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها في كل مكانٍ عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبةً، ولا يخشى عارًا، وأهولُ ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغررون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الأشراك لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلًا.

أصحيحٌ ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم – التي هي أشرف الصلات وأكرمها – صلة فسادٍ بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات، وأن الحبالة التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنما هي حبالة القلم الذي هو أفضل أداةٍ للخير، وأعظم وسيلةٍ للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم، وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم

وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكانٍ وتعرضونها في كل معرضٍ، وأخذ بعضكم يفاخر بعضًا بكثرة ما يملك منها، أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

أصحيحٌ أنكم تقفون لهن بكل طريقٍ، وتأخذون عليهن كل سبيلٍ، وتضايقونهن في مغداهن ومراحهن، وحيث ذهبن إلى عملٍ، أو خرجن لزيارةٍ، أو برزن في مجتمعٍ، فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن، ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصحيحٌ أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكواها علها تنفرج لكم عمن تحبون؟

أصحيحٌ أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلًا موقعًا عليه بتوقيعاتهن، مستشهدًا عليه بصورهن وخطوطهن، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم، والحياة بعيدًا عنكم، في جو غير جوكم، وجوارٍ غير جواركم، عذارى أو متزوجات؟

أصحيحٌ أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران المواخير؟

أصحيحٌ أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة، فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا هم له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه، ويتكسر في مشيته، ويرقق من صوته، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهدًا شعره بالترجيل، وبشرته بالتنضير، وثناياه بالصقل والجلاء، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم، فلم يبقَ فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إن كان حقًّا ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين، وسلامٌ على الفضيلة والشرف سلام من لا يرجو عودةً، ولا ينتظر إيابًا.

إنَّ هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها، إنما هي في الغد أم أولادكم، وعماد منازلكم،

ومستودع أعراضكم ومروءاتكم، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غدًا، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها.

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم؟ وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الأجواء جميعها وملأتموها سمومًا وأكدارًا؟

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها أو في عهد شيخوختها، بل في عهد شبابها، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهدٍ بعد ذلك، فدعوها تجتزْ هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرةً، تجدوا فيها بعد قليلٍ من الزمن خير زوجةٍ للزوج، وخير أم للولد، وخير سيدةٍ للمنزل.

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلًا لتستطيعوا أن تجدوها غدًا زوجة طاهرةً شريفةً في منازلكم، بدلًا من أن تجدوها فتاةً ساقطةً مزدراةً مطرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجاتٍ صالحاتٍ شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم وسعادة منزلكم، فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لَحَفِظنَ لكم حاضركم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن، وقتلتم نفوسهن، ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن.

إنني لا أفرغ في أمركم إلى القانون، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي، ولا إلى الحكومة، فالحكومة مشغولةٌ بشأن نفسها عن شأن غيرها، ولا إلى الدين، فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا آبائكم وأولياء أموركم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم. بل أفزع في أمركم إلى ضمائركم التي هي الأملِ الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم، فأصغوا إلى صوتها ساعةً تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم، وصوت الضمير أقوى من كل صوتٍ في العالم.

أصغوا إليه تسمعوه يقول لكم: إنَّ هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا إليهن أعينكم وأيديكم إنما هن أخواتكم الحميمات، يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل، وأم واحدة وهي البلد، وشرف الأخوة هو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهن.

يجب ألَّا يفتح قلب الفتاة لأحدٍ من الناس قبل أن يفتح لزوجها، لتستطيع أن تعيش معه سعيدةً هانئةً لا ينغصها ذكرى الماضي، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان، ولا أعرف فتاةً في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف.

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت إليه حبيبته رسمها موقعًا بتوقيعها، فلما تزوجت - وكان لا يحب ذلك منها - أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عارٍ بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشايةٍ إلى

زوجها ليلة عرسها، فما لبثت أن خسرت في لحظةٍ واحدةٍ سمعتها وسعادتها.

وحدثني من أثق به أنَّ كثيرًا من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهدًا أمام أخلائهن أن يكنَّ لهم بعد الزواج؛ أي بعد أن يصبحن مطلَقاتٍ من قيود العذرة وروابطها. وقلما تتزوج فتاة ذات صلاتٍ فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهم، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار.

نحن في حاجة إلى أن نعلم بناتنا؛ لأننا لا نريد أن يعشن جاهلاتٍ متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آمناتٍ مطمئناتٍ على نفوسهن وأعراضهن، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم، فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

أفسحوا الطريق لهن، وأفسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها، والأرامل المسترزقة لبنيها، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، والسائرة لزيارة قبر فقيدها، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الأرض سعيًا وراء رزقها، وقضاء

مصالحها، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين: إما الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلة الفضيلة أيها القوم! فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والأمل الباقي لها إن ضاعت - لا قدر الله - جميع آمالها وأمانيها. والشرف الشرف! فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئًا سواه.

المؤتمر الإسلامي

سرني منظر ذلك الرجل العظيم، والداعي الكريم، وهو قادمٌ إلى مصر يجتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوي الغبراء طي الكواكب الخضراء، يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبيه همةٌ عالية، ونفس كبيرة، وقلب مشيع، وفؤاد في الأفئدة كالنسر في الطيور، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظلله بجناحيه.

سرني منظره، وإن لم أره، وهو قائمٌ بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم، ويلم شعثهم، ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى، إلا أن تلك عربيةٌ تدعو الأعجمية، وهذه أعجميةٌ تدعو العربية الفصحى.

هنا ذكرت الإسلام ومجده، والإسلام وجنده، والإسلام ودولته، والإسلام وصولته، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول: والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه. وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حَمارَّةِ القيظ يستقبل شبحًا أسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره، حتى اقترب منه فتبينه فإذا هو أعرابيٌّ قادمٌ من سواد العراق، فجعل يسايره وهو راجل والأعرابي راكب لا يعرفه، ويسأله ما فعل الله بسعد وجنده، فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره، وتراث مرازبته ودهاقينه، وعمر لاهٍ عن نفسه

سرورًا بما سمع، وفرحًا بما تم. وذكرت صلاح الدين وهو يقود الجحفل اللجب والجيش العرمرم، إلى حيث يستنقذ الثغور، ويستخلص الأمصار، ويخوض جمرة الحرب المتأججة ليفتدي بنفسه أجسامًا إن لم تلتهمها النيران فكأن قد. وذكرت محمدًا الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبي بكرته، ويخترق بسفائن البحر رمال القفر، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء، وسجد في معبد «أيا صوفيا» سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه. وذكرت صقر قريشٍ وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولةً خضعت لها أفريقيا وبعض أوروبا. وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم، فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله، والمأمون وفضله، والغزالي وحكمته، وابن رشد وفلسفته، ومعاوية وسياسته، وعبد الملك وكياسته. وذكرت مدارس بغداد، وبخارى، والإسكندرية، والقاهرة، وغرناطة، وأشبيلية، وقرطبة. وذكرت مترجمي كتب إقليدس وبطليموس وأرسطو، وواضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء. وذكرت مخترعي البندول والبوصلة «بيت الإبرة» والساعة الدقاقة التي أهداها الرشيد إلى «شارلمان» ملك فرنسا، ففزع منها سامعوها فزعًا شديدًا وسموها شيطانًا رجيمًا، أو آلةً سحرية، أو مكيدة عربية... إلى كثيرٍ من أمثال هذه الآثار العربية، والمفاخر الإسلامية.

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ورماه بنكباته، أصبح أثرًا من الآثار، وخبرًا من الأخبار، وعليلًا حار فيه أطباؤه، وملَّه عواده، وظل مترجحًا بين داهيتين، ومضطربًا بين غايتين، إما أن يموت موتةً أبديةً وبالله العياذ، أو يحيا حياة مادية، لا حياة أدبية، وينهض جامعة تجارية، لا جامعة دينية، ما دامت المادة قاعدة الحكومات، وما دامت الحكومات عدوة الأديان، وما دامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا في فضاءٍ من الحرية لا ينتهي البصر فيه إلى مدى؛ لذلك أحزنني عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأشيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه البالية على رسائل الحب، وأناشيد الغرام، وأمضني ما يمض العاشق المفارق إذا مر بالآثار وأطلال الديار فرأى النؤي والأحجار، وموقد النار، ومجال الخيول، ومجر الذيول، فذكر ما كان ناسيًا، وهاج من وجده ما كان كامنًا، فبكى واستعبر.

وود بجدع الأنف لو عاد عهدها ... وعاد له فيها مصيف ومربع

ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الديني من الجاهلية الأخرى، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه.

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار، والأحياء والأموات، والأبواب والكوى، والقواعد والأساطين تبركًا، أو تقربًا، لفظان مترادفان،

مختلفان لفظًا متفقان معنًى، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه.

كانت الجاهلية الأولى متفرقةً قبائل وشعوبًا، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتًا، بل آحادًا وأفرادًا، فلا تراحم ولا تواصل، ولا تعارف ولا تعاطف حتى بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه.

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الأوتار، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات، وكان أفظع ما في جرائمهم وأد البنات، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار، وكان بعضهم يبغي على بعضٍ بسرقة ماله، أو استياق ماشيته، ففعلنا مثل ما فعلوا، وفوق ما فعلوا، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق، وتحريف الصكوك، وتقليد الأختام، والبراعة في النصب والاحتيال، يكاد يستوي في ذلك العالم والجاهل، والشريف الهاشمي والفلاح القروي.

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها، ولكنا أسأنا الاختيار، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم، وغيرتهم وحميتهم، وعزتهم ومنعتهم، فكيف لا يكون الأمر خطيرًا؟ وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى؟

نبئني عن الإسلام أين مستقره ومكانه؟ وأين مسلكه ومضطربه؟

وفي أي موطنٍ من المواطن حل، ومعهدٍ من المعاهد نزل؟ أفي الحانات والمواخير التي يغص بها الفضاء، وتئن منها الأرض والسماء، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء، كأنما هم يشربون الماء الزلال، ويغشون البضع الحلال؟ ولقد هان عليهم أمر نفسهم حتى لو وجدوا بينهم من يرى التقيَّة في عمله، أو الاحتشامٍ في أمره، سموه جبانًا جامدًا، أو متكلفًا باردًا، كل ذلك على مرأى ومسمعٍ من الحكومة الإسلامية، والمعاهد الدينية، والقضاءين الشرعي والنِّظامي؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح والغبن الفاحش مزخرفًا بالأقوال الكاذبة والأيمان الباطلة؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدل وسلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوبة فيها «العدل أساس الملك.» أو «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم، والمفاسد والمظالم لكفت تلك الحركات – التي يسمونها صلواتٍ، ويحسبونها حسنات – لغفران تلك السيئات؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسمًا بلا روح،

وعلمًا بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الداثرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولًا عجيبًا وخلقًا غريبًا من الأكاذيب والترهات، فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا حديثًا موضوعًا، أو قولًا مصنوعًا، أو خرافةً تاريخية، أو بدعةً دينية، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات، والتحاسد والتباغض، والتقاطع والتدابر، وهي بعينها الأخلاق والرذائل التي ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانية والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحًا، وللإسلام صلاحًا، فليبدءوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية، وتربية النشء الحديث تربيةً إسلامية لا تربية مادية؛ أي أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب، والمعلم والمهذب، فالإسلام وإن كان دين العقل والفطرة، والتهذيب والإصلاح، إلا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون في نظرهم

تابعًا للعقل، وأن يكون العقل هو الحكم بينهم وبينه. والخير كل الخير في أن يكون الدين حاكمًا والعقل مفسرًا ومبينًا. فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة والحكمة والسياسة فقد تم لهم كل شيء، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين الدينية والسياسية، كما تم لهم ذلك في العهد الأول من هذا الباب نفسه، وفي هذه الجادة المستقيمة، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة أن يكونوا كدعاته في الجاهلية الأولى؟ وهل يستطيعون أن يخلصوا لله في عملهم جادين مثابرين، لا تأخذهم فيه هوادةٌ، ولا عنه سِنةٌ، وألا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلًا إلا بالإيمان والتقوى، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل الله، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر، ويحتمل الكريهة، ولا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلا، ولا للهوان على نفسه سلطانًا؟

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما أصلح المصلحون في الأولين؟ «لست أدري ولا المنجم يدري»:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

في أكواخ الفقراء
«مترجمة»

مضى الليل إلا قليلًا والظلام مخيمٌ على الكون بأجمعه، والكواكب متلفعة بأردية السحب، ما يستشف منها الناظر بصيصًا ولا قبسًا، والفضاء بحرٌ خضمٌّ مترامي الأرجاء إلا أنه ساكن الصفحة، هادئ النأمة، يقصر فيه قاب العين، وتضل في تيهه أشعة النظر حتى عن نفسها. والغيوث منهلةٌ متواصلة، تهمي بقوةٍ واحدةٍ وقوامٍ واحد، لا تغزر ولا ترق، ولا تضطرب خيوطها، ولا تختلف نغمتها كأنما هي شباكٌ ممتدة بين السماء والأرض. وكوخ السماك «فيليب» جاثم في مجثمه بين الأكواخ المحيطة به، لا يرى فيه الداخل غير مصباح ضئيل تجاهد ذبالته جهادًا شديدًا في تمزيق قطع الظلام المتكاثفة حولها، وغير مجمرة هامدة قد خبت نارها إلا بقايا جمراتٍ شاحبات قد التفت بأكفانها البيضاء، وأخذت طريقها في مدرجة الفناء.

وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بضع شبكات معلقة بالجدران كأنها الأشباح الماثلة، ومنضدة عارية قد نشرت فوقها بضعة آنية نحاسية تلمع لمعانًا ضعيفًا في ذلك الحندس كأنها عيون الجنادب، فإذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشية مبسوطة على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقين آخذٌ بعضهم

بأعناق بعض، كما تتآخذ الأفراخ في أعشاشها، وكما يضم الخوف الضلوع بعضها إلى بعض. وعلى مقربةٍ من فراشهم امرأةٌ صفراء شاحبةٌ جاثية على ركبتيها تصلي وتبتهل وتدعو الله تعالى بصوتٍ خافتٍ متهافت أن يرد لها زوجها سالمًا، وكان قد خرج كعادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتى الساعة.

وإنها لكذلك إذ هبت الزوبعة هبوبًا عظيمًا، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازًا شديدًا، وأنَّ لوقعها الأطفال في لفائفهم، فطار قلبها فزعًا ورعبًا، وخيل إليها أنَّ هدير الأمواج، ودمدمة الرعود، وزفيف الرياح، وقعقعة السقوف والجدران إنما هي نذر السوء تنذرها بمصير زوجها المسكين في أعماق ذلك الأوقيانوس العظيم. فظلت تردد بينها وبين نفسها: رب إني بائسة مسكينة، لا سند لي ولا عضد، وإنَّ هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لا يستطيعون أن يقوتوا أنفسهم، ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلتهم في شئون حياتهم، فاحفظ لي ولهم حياة ذلك الرجل المسكين الذي أسلم أمره إليك، وأودع حياته بين يديك، وخرج في طلب الرزق من ساحتك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المعدمة فلم يعد حتى الساعة، ولا ندري ما فعلت به يد الأقدار.

ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساء الصيادين وأولادهم!

إنهم يتركوننا وحدنا في هذه الأكواخ الموحشة، ويذهبون لطلب العيش في ذلك التيه المائي العظيم الذي لا نهاية لعمقه، ولا حد

لاتساعه، ولا عاصم من مخاطره. ويحاولون انتزاع أرزاقهم من بين ماضغي تلك الأمواج الثائرة الفاغرة أفواهها كالذئاب الجائعة، تحاول التهام كل ما يدنو منها. ولعل القدر الذي نخشاه عليهم في هذه الساعة قد نزل بهم، فلم تغنِ عنهم شيئًا تلك الرقائق الخشبية المتلاصقة التي يسمونها زوارق، ولعلهم لبثوا ساعات طوالًا يصارعون الأمواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم، فداروا بأعينهم حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها إلا بقاياها المتطايرة في مهاب الرياح، فحاولوا أن يسبحوا إليها فأفلتت من أيديهم، فنال منهم العياء، فهووا إلى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعامًا للأسماك التي كانوا يظنون منذ ساعة أنها ستصبح طعامًا لهم.

هنالك يأتينا نعيهم فنبكي ونندب، ونهرع إلى الشاطئ والِهين مدلهين، ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين أن رد إلينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا، وأفلاذ أكبادنا، أو تكشف عن نفسك قليلًا علَّنا نرى جثثهم في قاعك العميق، فلا نسمع ملبيًا ولا مجيبًا.

وهنا هدأت الزوبعة قليلًا، وخفتت أصوات الرياح، فسكن بعض ما بها، ونهضت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها في السماء لترى كم بقي بينها وبين الصباح. وكان الظلام لم يزل حالكًا والمطر لم يزل منهلًا، فمدت يدها بالمصباح

أمامها لترى هل من مقبلٍ يتقدم، أو شبح يتحرك، فلم يقع نوره إلا على كوخٍ بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة. فتذكرت حينما وقع نظرها عليه أنه كوخ تلك الأرملة المسكينة «جانت» التي مات زوجها غريقًا منذ بضعة أشهرٍ وخلف لها أطفالًا صغارًا تقاسي الآلام الشداد والأهوال العظام في تدبير عيشهم، وتقويم أودهم، فمر بخاطرها أن تزورها وتتعرف حالها؛ لأنها كانت تعلم أنها مريضةٌ مدنفة، وأنها كابدت ليلة أمس من دائها عناءً عظيمًا، وأقرب ما تكون النفوس إلى النفوس إذا جمعتها في صعيدٍ واحدٍ هموم الحياة وآلامها. فأخذت طريقها إلى ذلك الكوخ حتى بلغته، فوقفت على بابه وقرعته مرارًا فلم يرد عليها أحد، فدفعته ففتح، فدخلت رافعةً مصباحها أمامها فأنار لها ما حولها، فرأت بين يديها ما أرعد فرائصها، واستوقف دقات قلبها، وأمسك الدم عن جريانه في عروقها.

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدي الرياح المتناوحة، ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهي الأخرق فتبلل كل شيء فيه، ورأت فراشًا قذرًا من القش قد رقدت فوقه الأرملة «جانت» رقدةً ساكنةً جامدة لا حس فيها ولا حركة. فدنت منها ولمستها بيدها، فإذا هي ميتةٌ، وإذا قطرات من الماء تتحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالي الممزق. فوقفت أمام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلةً مشدوهة، ثم صاحت: هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض، وهذا

مصيرهم الذي يصيرون إليه بعد جهادهم في سبيل الحياة زمنًا طويلًا، إنهم يعيشون في هذا العالم مجهولين مغمورين لا يعرفهم أحد، ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين لا يشعر بخروجهم حتى أهلوهم وذوو أرحامهم.

ما يدريني ألا يكون مصيري ومصير أولادي غدًا هذا المصير الذي أراه الآن، وقد لا تدخل عليَّ في تلك الساعة جارةٌ من جاراتي تراني وترثي لحالي كما أرثي الآن لحال هؤلاء المساكين؟

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة، ودارت بمصباحها في أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهًا لوجهٍ، وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة، كأن شبح الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما، ولا يزعجٍ سكونهما. ورأت رداء أمهما - وكانت تعرفه قبل اليوم - مسبلًا عليهما، فخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو ساعتين وهي تعالج في فراشها سكرات الموت، ثم تلتفت من حين إلى حين إلى طفليها النائمين، والمطر يتساقط عليهما والبرد يعبث بأعضائهما، فتشفق عليهما، وترثي لهما، حتى ضاقت بها ساحة الصبر، فخلعت عنها رداءها - وهي أحوج ما تكون إليه - وألقته عليهما، ثم ألقت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها.

وقفت «ماري» أمام هذه المناظر المؤلمة، والريح تئن أنين الوالهين المتسلبين، والموج يعج عجيج أجراس الموت، وقطرات الماء تنحدر من

جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هي تذرف دموع الحزن على فراق ولديها. وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام، ويرسل بعض أشعته في جوانب الكوخ، فأطفأت «ماري» المصباح الذي بيدها ووضعته جانبًا، ثم جثت بجانب الميتة وصلت لها ما شاء الله أن تفعل، ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وحملتهما برفق وسكون، ومشت بهما حتى بلغت كوخها، فأضجعتهما بجانب طفليها، وأسبلت عليهم جميعًا رداء واحدًا.

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها: لا أدري أأصبت فيما فعلت أم أخطأت؟ وإنما أدري أنَّ المرأة التي أودع الله قلبها شعور الأمومة وإحساسها لا تستطيع أن ترى طفلين طريحين على فراشهما في كوخ عارٍ من كل شيء إلا من جثة أمهما، فتتركهما وشأنهما دون أن تعلمَ ما مصيرهما بعد ذلك.

إنَّ المنظر الذي رأيته ما كان يسمح لي بالتفكير في نتيجة العمل الذي أعمله، فإن تبين لي بعد ذلك أنني مخطئة فليس معنى هذا أني كنت أستطيع تجنب الوقوع في هذا الخطأ؛ لأن قلبي من لحم ودم، لا من فولاذ وصوان.

نعم إنَّ زوجي فقير، وإنَّ طفليَّ معدمان بائسان لا يكادان يشبعان من الخبز، وإن عناءنا في تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عنائنا في تربية طفلين، ولكن لا يجوز لنا - ضنًّا براحة أنفسنا - أن نترك طفلين صغيرين يموتان - على مرأى منا ومسمع - بردًا وجوعًا.

ذلك ما سأقوله لزوجي عند رجوعه، وما أحسبه قاسيًا ولا متوحشًا فينكر عليَّ فعلتي هذه، ويأمرني بإلقائهما خارج الباب.

ثم وقفت عن الكلام فجأة؛ لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه، فارتعدت، ثم علمت أنها الريح، فأطرقت برأسها ساعة ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهبٍ، فبكت وضحكت، وغضبت ورضيت، وأملت ويئست، ورحمت وقست، وحمدت فعلتها، وندمت عليها، وأحسنت الظن بزوجها، وأساءته به. وظل فؤادها نهبًا مقسمًا في يد الهموم والأفكار حتى شعرت بسوادٍ يتقدم نحوها، فاستطير قلبها خوفًا ورعبًا، وانتبهت فإذا زوجها داخل يحمل شبكته على ظهره والماء يقطر منها، فنهضت وعانقته، ثم ألقت نظرها على وجهه فأنكرت شحوبه وتضعضعه كما أنكر ذلك منها حين رآها. وسألته كيف كان حظه الليلة، وماذا كان شأنه مع العاصفة؟ فألقى بشباكه وقصبه على الأرض وظل يقول لها: أما الليلة فكانت مزعجةً جدًّا لم أرَ في حياتي مثلها، وأما الصيد فها هي ذي يدي صفر منه كما ترين، ولولا رحمة الله بي وبكم لهلكت، وما أنا بآسف على شيءٍ ما دمت أراكم بخير ... وكيف حال الولدين؟ فارتعشت وقالت: هما بخير، قال: ما لي أراك شاحبةً صفراء؟ وكيف قضيت ليلتك؟ فأطرقت برأسها وقالت: قضيتها في خياطة قميصين للولدين، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت عليك، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد الله. ثم نظرت إليه

وبين شفتيها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع، ثم استنصرت جلدها وقوتها وقالت: وشيءٌ آخر أحزنني جدًّا، قال: وما هو؟ قالت: قد علمت الساعة قبل رجوعك بقليلٍ أنَّ جارتنا «جانت» قد لبت دعوة ربها، وأنَّ ولديها الصغيرين قدْ أصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما.

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة، ونهض من مكانه وتمشى قليلًا ثم ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره، وظل يعبث بشعر رأسه، فيشده حينًا، ويمسحه أخرى، وهي تتبعه بنظراتها لتفحص صورة نفسه المرتسمة على وجهه، ثم جلس على المائدة القائمة في وسط الكوخ، وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدج: رب، إني وإن كنت رجلًا جاهلًا فدمًا لا أستطيع أن أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما، إلا أنني معترف بوجود تلك الحكمة لا أنكرها، ولا بدَّ أن الذين يعلمون أكثر مما أعلم يفهمون من شئونك وتصرفاتك فوق ما أفهم!

نعم، إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات، وربما مر عليَّ وعلى أولادي أيام لم نجد فيها ما نأتدم به، ولكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هذين اليتيمين الصغيرين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب؟

ثم التفت إلى زوجته وقال لها: إنني متألم جدًّا يا ماري، ويخيل إليَّ أنَّ روح تلك المرأة المسكينة واقفة الآن أمام هذا الباب تقرعه

وتضرع إلينا أن نأخذ ولديها إلينا، ونكفلهما من بعدها، ولكن كيف العمل يا إلهي؟ فقالت: إني أكاد أسمع هذا الصوت الذي تسمعه يا فيليب! وإن ألمي عظيم كألمك، فصمت هنيهةً ثم انتفض انتفاضةً شديدةً ودنا منها وقال لها: ألم يمت لنا طفلان في العامين الماضيين يا ماري؟ قالت: بلى. قال: ماذا كنا نصنع لو أنهما بقيا حيين حتى اليوم؟ قالت: لا شيء سوى أننا نفزع إلى الله في أمرهما. قال: فلنفزع إلى الله في أمر هذين الطفلين اليتيمين، وكأن ولدينا لا يزالان حيين حتى اليوم، أو كأنهما بعثا من قبرهما بعد موتهما.

اذهبي إليهما يا ماري وأحضريهما، فربما استيقظا بعد هنيهةٍ من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة في فراشها فماتا خوفًا ورعبًا.

اذهبي إليهما واحمليهما برفقٍ وهدوءٍ بدون أن توقظيهما وأضجعيهما على فراش ولدينا، فسيكون منظرهم جميعًا جميلًا جدًّا حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم في وجوه بعض، وحرام عليَّ النبيذ واللحم بعد اليوم لأستطيع أن أقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التي أصبحت سيدها وعائلها، اذهبي يا ماري وثقي أنَّ الله سيملأ علينا بيتنا خبزًا وفحمًا ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين.

فتهلل وجهها بشرًا وسرورًا، ونهضت من مكانها ومشت إلى مضجع الأطفال فرفعت عنهم الغطاء، ونظرت إلى زوجها صامتةً

لا تقول شيئًا، فما وقع نظر «فيليب» على هذا المنظر الغريب حتى استطير فرحًا وسرورًا، وهرع إلى زوجته واحتضنها إلى صدره وقال لها: ما أشرف قلبك يا ماري!

يا سكان القصور: ليتكم من سكان الأكواخ، لتستطيعوا أن تكونوا من الراحمين المحسنين.

الضمير

أتدري ما هو الخلق عندي؟

هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن يفعل.

لذلك لا أسمي الكريم كريمًا حتى تستوي عنده صدقة السر وصدقة العلانية، ولا العفيف عفيفًا حتى يعف في حالة الأمن كما يعف في حالة الخوف، ولا الصادق صادقًا حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله، ولا الرحيم رحيمًا حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه، ولا المتواضع متواضعًا حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه.

التخلق غير الخلق، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقون بخلق الفضيلة، لا فاضلون؛ لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس، أو خوفًا منهم، أو طمعًا فيهم. فإن ارتقوا عن ذلك قليلًا لبسوه طمعًا في الجنة التي أعدها الله للمحسنين، أو خوفًا من النار التي أعدها الله للمسيئين.

أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة، أو يتقي السيئة لأنها سيئة، فذلك من لا نعرف له وجودًا، أو لا نعرف له مكانًا.

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار؛ لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة، وهو يحسب أنه يمشي في طريق

الفضيلة، أو خوفه من القانون؛ لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس؛ لأن الناس لا ينفرون من الرذائل، بل ينفرون مما يضر بهم - رذائل كان أم فضائل - وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به، ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته.

وما زالت الأخلاق بخيرٍ حتى خذلها الضمير وتخلى عنها، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات، والقواعد والأنظمة، ففسد أمرها، واضطرب حبلها، واستحالت إلى صورٍ ورسوم، وأكاذيب وألاعيب. فرأينا الحاكم الذي يقف بين يديْ الله ليؤدي صلاته وأسواط جلاديه تمزق على مرأى منه ومسمعٍ جسم رجلٍ مسكين لا ذنب له عنده إلا أنه يملك صبابة من المال يريد أن يسلبه إياها، والأمير الذي يتقرب إلى الله ببناء مسجدٍ قد هدم في سبيله ألف بيتٍ من بيوت المسلمين، والفقيه الذي يتورع عن تدخين غليونه في مجلس القرآن، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه من فاتحته إلى خاتمته، والغني الذي يسمع أنين جاره في جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به، فإذا أصبح الصباح ذهب إلى ضريحٍ من أضرحة الأولياء، ووضع في صندوق النذور بدرةً من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة به إليها، والمومس التي تتصدق بنفسها ليلةً في كل عام على روح بعض الأولياء عندها أنها قد كفرت بذلك عن سيئاتها طول العام.

إلى كثير من أمثال هذه النقائض التي يزعم أصحابها ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوي الأخلاق الفاضلة، والسيرة المستقيمة.

الخُلُق هو الدمعة التي تترقرق في عين الرحيم كلما وقع نظره على منظرٍ من مناظر البؤس، أو مشهد من مشاهد الشقاء.

هو القلِق الذي يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه والاغتماض كلما ذكر أنه رد سائلًا محتاجًا، أو أساء إلى ضعيفٍ مسكين.

هو الحمرة التي تلبس وجه الحيي خجلًا من الطارق المنتاب الذي لا يستطيع رده، ولا يستطيع مد يد المعونة إليه.

هو اللجلجة التي تعتري لسان الشريف حينما تحدثه نفسه بأكذوبة ربما دفعته إليها ضرورةٌ من ضرورات الحياة.

هو الشرر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يدٌ من الأيدي إلى العبث بعرضه أو بكرامته.

هو الصرخة التي يصرخها الأبيُّ في وجه من يحاول مساومته على خيانة وطنه، أو ممالأة عدوه.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج، فمن أراد أن يعلم الناس مكارم الأخلاق فليحي ضمائرهم، وليبث في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلةٍ شاء، ومن أي طريقٍ أراد، فليست الفضيلة طائفةً من المحفوظات تحشى بها الأذهانُ، بل ملكاتٌ تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب، والأريج عن الزهر.

الماضي والحاضر

عندي أنَّ الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان، يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أنَّ الجمال في أمةٍ قد يكون قبحًا في أمة أخرى، كذلك الفضيلة في عصر، قد تكون رذيلة في عصر آخر.

ليست الفضائل والرذائل أسماء توقيفية كأسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلةً إلا لأنها طريق السعادة في الحياة، ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الفضيلة، وإن كانت صفه اللؤم، وحيث يكون الشقاء في صفة فهي الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم.

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل مكان من عهد آدم إلى اليوم، أن ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتحلحلان، يكتبون على رأس أحدهما عنوان «الفضائل»، وتحته كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة، وعلى رأس ثانيهما عنوان «الرذائل»، وتحته كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة، وأرى أنه قد آن لهم يعلموا أنَّ الناس اليوم غيرهم بالأمس، وأنَّ أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية، وأنَّ كثيرًا من الصفات التي كانت

في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلون مكانها، قد أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح، حالةً واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري، وأسسًا ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشئونه. فلا بد للناس منها، ولا غنى لهم عنها، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلمًا نظاميًّا، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم.

* * *

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، ويعرفون له يده التي أسداها إليهم، فإذا هوى به كرمه في هوة من هُوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين الذين أحسن إليهم أو عظم في نفوسهم شأن إحسانه، من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه، أو يرفهه عليه. أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه، فليس الكرم فضيلةً، وليس من الرأي الدعاء له، والحض عليه.

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن أنفسهم فلا يعترف بالبؤس إلا البائس، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد. أما اليوم وقد ذلت النفوس وسفلت المروءات،

فلبس ثوب الفقر غير الفقير، وانتحل البؤس غير البائس، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها ويحتلبون درتها حتى تجف جفاف الحشف البالي، فالرحمة هي الفقر العاجل، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلةً يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه، ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها، فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذي يريد، أما اليوم وقد فترت همم الناس، ووهت عزائمهم، وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير، ووكل كلٌّ أمره إلى صاحبه، فإن رأوه قائمًا بدعوةٍ وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضي فيها، ثم وقفوا على كثبٍ ينظرون ماذا يفعل، فإن ظفر هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها، وإن فشل خذلوه، وتنكروا له، فالشجاعة جنون لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء.

وكانت القناعة فضيلةً يوم كان الفضل هو الميزان الذي يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم، ويوم كان الفقر مفخرةً للشريف إذا عفت يده، وعزفت نفسه، والغنى معرةً للدنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه. أما اليوم وقد مات كل مجدٍ في العالم إلا المجد المالي، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم، فالقناعة ذل الحياة وعارها، وبؤسها الدائم، وشقاؤها الطويل.

وكان الغضب رذيلةً يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ويقدرونها قدرها، ويطأطئون رءوسهم إجلالًا لصاحبها. أما وقد أصبح الناس أشرارًا يحملون شرورهم على كواهلهم، ويدورون بها في كل مكان يطلبون لها رأسًا يصبونها عليه، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك الذي لا يحسن الذياد عن نفسه، فلا خير في الحلم، والخير كل الخير في الغضب.

الحياة معتركٌ أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى.

يجب أن يكون الناس جميعًا إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض، أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة، وهو أضعف السلاحين وأوهاهما، فليس لذلك إلا معنًى واحد؛ هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم في سبيل حياة أدنيائهم وأنذالهم.

إنَّ الدعاء إلى البر والإحسان، والرحمة والشفقة، والعدل والإنصاف، والصدق والإخلاص في هذا العصر، إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها، فيستأثرون بها من دونهم، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينتقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء، ولا إلى القناعة إلا ليقلل من سواد المزاحمين له على أغراض الحياة ومطامعها، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه.

كلنا يكذب، فلمَ يعيب بعضنا بعضًا بالكذب والتلفيق؟ وكلنا يبسم لعدوه وصديقه ابتسامةً واحدةً، فلم نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها، فلم نستفظع الطمع والجشع؟ وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده، فلم نشكو من الظلم والإرهاق؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأنا نريد أن نستخدم الفضيلة في أعراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدين في الأعصر الماضية.

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أنَّ الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب، وأنَّ قصص الفضائل التي يقرءونها ونوادر المروءات والكرم والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها، إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضى عهدها، حتى لا يصبح ناقمًا على العالم يوم ينكشف له وجهه، ويرى سوآته وعوراته، وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات.

وليت الذين يعرفون من شئون الرذائل ودخائلها فوق ما أعلم يضعون للناشئ كتابًا مدرسيًّا على نمط كتب التاريخ يوضحون لهم فيه كيف يكذب التاجر، ويغش الصانع، ويلفق المحامي، ويدجل الطبيب، ويختلس المرابي، ويرائي الفقيه، ويصانع السياسي، ويتقلب الصحافي، ثم يقولون له: هذه هي الحياة، وهذا هو ما يجري فيها، فإن أردتها على علاتها فذاك، أوْ لا، فدونك مغارة

موحشة في قمةٍ من قمم الجبال فعش فيها وحيدًا بعيدًا عن العالم وما فيه، وكل مما تأكل حشرات الأرض، واشرب مما تشرب منه، حتى يوافيك أجلك.

الشر لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم، وحامل السيف لا يغمده في غمده إلا أمام حامل سيفٍ مثله، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سدًّا يعترض طريقه، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفًا، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبيًّا، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعضٍ إلا إذا برزوا جميعًا في ميدانٍ واحدٍ يتقلدون سلاحًا واحدًا من نوعٍ واحد.

من أراد الفضيلة للفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروفٌ لا ريبة فيه، فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلةً من وسائل العيش في عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هؤلاء الناس، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق، وأضل السبيل.

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالها، لولا أنَّ شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها، فرحمة الله عليها، ووا أسفا على أيامها وعهودها!

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أنَّ أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف إلى أسرةٍ كريمة ليخطب إليها فتاةً من فتياتها لابنه، ثم اتفق له أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضًا فشغف بها حبًّا وخطبها لنفسه، فلم يرَ أهلها مانعًا من أن يزوجوها منه على تقدم سنه وإدبار أمره؛ لأنه أكثر من ابنه مالًا، وأوسع جاهًا وسلطانًا، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرةً لا رجعة له من بعدها؛ لأنه كان يحب الفتاة حبًّا جمًّا، وأصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازمًا لها حتى اليوم، وأصبح الشيخ حزينًا بائسًا؛ لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد.

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيرًا، ثم قرأت حادثةً أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك لتوازن بين الحادثتين كما وازنت، وتستنتج منهما ما استنتجت.

فجعت سيدة اسمها «مارجريت بونفيل» بوفاة زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها، وكانت امرأةً بارعة الجمال، رائعة الحسن، لا يراها الرائي حتى يخيل إليه أنها الكوكب المشبوب رونقًا وبهاء، وأنها لا تزال في مستهل العقد الثالث من عمرها. فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشًا شديدًا، وبدأت تختلف إلى بعض الأندية العامة علَّها تروح عن نفسها وحشتها وكآبتها،

فاتصلت هناك بفتًى من نبلاء الفتيان أعجبها منه جمال صورته وعذوبة أخلاقه وحلاوة سمره ورقة آدابه، فأحبته وافتتنت به. وأضمرت في نفسها أن تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه، وإن كان أصغر منها سنًّا بنحو عشر سنين، فلم تزل تتودد إليه، وتستدني قلبه، حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها. وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يرد على لسانها كثيرًا ذكر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتوفى، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها، حتى زارها في منزلها يومًا من الأيام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الأطفال ويطربون لها، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت: ما هذا الذي تحمل؟ قال: إنها هدية لماري أريد أن أقدمها إليها، وأين هي؟ فأرادت العبث به وقالت له: إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك.

فذهب حيث أشارت، فراعه أنه لم يجد أمامه طفلةً في السادسة من عمرها كما كان يظن، بل فتاة كاعبًا رائعة الجمال في السادسة عشرة، فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل، ولا ماذا يقول، حتى رنت من ورائه ضحكة مرجريت، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر، فارفض جبينه عرقًا، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها: أقدم لك يا ماري صديقي جورج الذي حضر

اليوم ليهديك حصانًا خشبيًا جميلًا، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة، فأثر في نفسها خجل جورج وارتباكه، فمشت إليه ووضعت يدها في يده وقالت له: أشكر لك هديتك يا سيدي، وأتقبلها منك باغتباط وسرور، وأعدك أني سأحفظها لك عندي تذكارًا دائمًا لا أنساه، فسري عنه ما لحقه من الخجل، وجلسوا جميعًا يتحدثون ويسمرون، ومر لهم أطيب يوم مر لأحدٍ حتى أظلهم الليل، فاستأذن جورج وعاد إلى منزله.

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرجريت لا من أجل الأم وحدها، بل من أجل الأم والبنت، حتى حضر صباح أحد الأيام، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها، فوجد ماري وحدها، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم يكن يشعر بمثله من قبل، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خاليةً فوجدها، وكانت جالسةً على شاطئ الجدول في المكان الذي رآها فيه أول ما رآها، فجلسا معًا يتحدثان حديثًا طويلًا ذهبا فيه مذاهب مختلفة، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من حديث الحب، فورداه، فإذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب. وإنهما لمضطجعان وجهًا لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضجعةً يتمنى المصور أن يراها فيرسمها؛ فيرسم صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعًا فلا يجدونها، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران، فرابها منظرهما، وخيل إليها أنهما يتحدثان في شأن

غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها، فأصغت إليهما، فألَّمت بطرفٍ من حديثهما، فدارت بها الأرض الفضاء دورةً كادت تصعق فيها، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خر بين يديها دفعةً واحدة، فثارت من حولها عبرةٌ قائمة حجبت عن عينيها كل شيء فامَّلست من مكانها امِّلاسًا، ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها. فمسحت عبرتها بيدها فإذا المرآة أمامها، وإذا شعراتٌ بيض سانحات في رأسها تهتف بها أن انقضى عصر شبابك أو كاد، وقد خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك، فأخلي مكانك لابنتك، فهي أولى به منك، وحسبك من السعادة أن تفرحي لفرحها، وتهنئي لهنائها. واعلمي أنَّ للطبيعة حكمًا قاسيًا لا يختلف عليه مختلف ولا يتمرد عليه متمرد إلا هلك. ومرت بها على حالتها تلك ساعةٌ كانت عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكًا، وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة، فتثور ثائرتها، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها أمثالها، ونحو ابنتها أخرى، فتلين عريكتها، ويسلس قيادها وتقول في نفسها: إنها أولى به مني؛ لأنه خلق لها وخلقت له حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر، فخرجت من غرفتها باسمة متطلقة حتى وصلت إلى مكانهما، فرأتهما مستغرقين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشيءٍ مما حولهما، فصاحت بهما: أأنتما

هنا يا ولدي؟! فاضطربا إذ رأياها فابتسمت لهما ووضعت يدها على أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها، وجلست تتحدث إليهما حديثًا طويلًا انتهى بعقد الخطبة بينهما. وما هي إلا أشهر قلائل حتى زُفَّت إليه. وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهداه أبوها لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها.

وكانت قد بقيت بقيةٌ من مرارة الألم في أعماق قلب مرجريت لم تزل تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى رن في أذنها يومًا من الأيام صوت حفيدتها تدعوها «جدتي» فكان هذا آخر عهدها بها.

وكذلك استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها.

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره، وهو يخطو إلى القبر خطوات حثيثة، وهذا ما فعلت المرأة وهي نَصَفٌ لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب، فجوزي هو على تمرده على الطبيعة وخروجه عن سنتها شر الجزاء، وجوزيت هي على تعقلها ورزانتها وتأدبها بأدب الحياة أحسن الجزاء.

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هذا البلد أنَّ الرجل إذا ابتسم له دهره من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر إلى سماء الثروة والغنى، بنى بينه وبين ماضيه سدًّا محكمًا لا تنال منه المعاول، ولا تعصف به العواصف، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي، زيه وهيأته ولغته، ولهجته، ومناخه ومسكنه، وعاداته وأخلاقه، وأصحابه وعشراءه، وجميع صلاته وعلائقه، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له: صورته واسمه لفعل.

يريد أنه قد أصبح إنسانًا غير ذلك الإنسان الأول، لا صلة له به، ولا شأن له معه، وأنه قد خلق خلقًا جديدًا.

إنها لخَلَّة رديئة جدًّا ما رأيت في الخلال أقبح منها.

إنه يفعل ذلك؛ لأنه يعتقد أنَّ الفقر عيب وعار، والفقر ليس بعيب ولا عار. فإن كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه، بل على السواد الأعظم من أمته، بل على نفسه أيضًا؛ لأنه قضى عصر شبابه - والشباب هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها - في الفقر والخصاصة، والعدم والإقلال.

ولا أدري ماذا يكون شأنه غدًا إذا استرد الدهر هبته منه؟ وكثيرًا ما يسترد الدهر هباته وعطاياه، بل لا يكاد يهب هبة، أو

يمنح منحة حتى يستردها. عَذَرْتُهُ في ثوبه الذي خلعه، وقلت: قد لبس لكل حالة لبوسها، وفي داره التي هجرها، وقلت: لا بدَّ أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق، وفي لهجته التي غيرها؛ لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم، وفي خده الذي صَعَّرَهُ وصدره اَلذي أبرزه، وأنفه الذي شمخ به؛ لأن للثروة طغيانًا كطغيان الشراب، لا سبيل إلى دفعه والخلاص منه. ولكنني لا أستطيع بحالٍ من الأحوال أن أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها.

إنها رفيقة حياته، وعشيرة صباه، وشريكته في سرائه وضرائه، ويسره وعسره، وشبعه وجوعه، وريه وظمئه، وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلا لها وجه السماء بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسرًا، وضيقه سعةً، وشدته رخاءً، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته، وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداته.

إنها شاركته في شدته فيجب أن تشاركه في رخائه، واحتملته والدهر مدبرٌ عنه، فيجب أن يحتملها والدهر مقبلٌ عليه، وأقرضته الصبر على عشرته، فيجب أن يوفيها الصبر على عشرتها إن كان يرى أنها عبءٌ ثقيلٌ عليه.

أيريد أن يتمنى النساء جميعًا لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك؟

إنهن يتمنين ذلك فعلًا، بل يسعين له سعيهن؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى، فيا للفظاعة والهول! ويا للمعيشة النكدة المريرة! ويا للشقاء الذي يهدد الحياة الزوجية وينذرها بالمحو والفناء!

حدثني من أثق به أنه دعي إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة، فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث إلى بعض الناس وتقول لهم: إنها سيدة هذا البيت بالأمس، وإن زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله فكفاها مئونة العيش، وحماها عادية الشقاء، بل تركها في قريتها وحيدةً منقطعةً، لا يعود عليها بقليلٍ من المال ولا بكثير، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى أنه أصبحَ ذا زوجةٍ جديدة وولد جديد. وقالت: إنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم.

إنه لموقفٌ مؤلمٌ جدًّا أن تقف امرأةٌ على باب البيت الذي كانت سيدته بالأمس موقف السائل المتكفف، فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين المتكففين.

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع، ولا لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ، ولا لذة السعادة إلا إذا تمثل أمام عينيه عهد الشقاء، فما أحوجه إذا انتقل من عذاب الفقر إلى نعيم الغنى إلى أصدقاء عهده

الأول وعشرائه، ليجلس إليهم من حينٍ إلى حينٍ، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره، فيشعر بلذة الانتقال من حالٍ إلى حالٍ. وما أحوجه إلى زوجه التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه في عهد سعادته ليرى في مرآة وجهها صورتيه القديمة والحديثة، فيعلم حين يقارن بينهما أنَّ فضل الله عليه كان عظيمًا.

وتعجبني كثيرًا قصة خالد بن برمك جد البرامكة، وكان رجلًا أعجميًّا من قريةٍ من قرى فارس اسمها «بوشنج»، وفد إلى بغداد وحظي عند الخليفة، فولاه الوزارة، فلما ركب في الموكب الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم بذلك المنصب العظيم، وقف الناس له صفوفًا على جانبي الطريق، وأطل عليه النساء من نوافذ الدور والقصور، وهو مطرق واجم، فقال له أحد أصدقائه وكان يسير بجانبه: ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن؟ قال: نعم أراهن، ولكنني كنت أفضل أن أرى بدلًا منهن عجائز «بوشنج».

أي أنه كان يتمنى أنَّ العيون التي رأته بالأمس وهو وضيع، تراه اليوم وهو رفيع.

الأجواء

ما زلت مذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر، وسالت لها دموع الفضيلة حزنًا وأسًى، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتًا عيش البؤس والفاقة، أعجب لهن ولأمرهن، وأقول في نفسي: ليت شعري لمٍ يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة التي لا يجدن فيها علالةً من العيش يتعللن بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن، ولم يصطبرن على ظلم ذلك الرجل الجبار الذي يستبد بهن، ويستأثر بجميع شئونهن ومصالحهن، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته؟ ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذاهب الأرض حيث شئن يطلبن لأنفسهن الحياة في جو مطلق؟ والأجواء الحرة المطلقة كثيرة، وأسباب العيش فيها متنوعة، وما على وجه الأرض جوٌّ أسوأ من جوِّهنَّ الذي يعشن فيه فيخفنَ أن يصرنَ إليه. ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في تأويل ذلك من أنَّ ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقًا من بأسه وقوته فلا سبيل لهن إلى اختراقه، ففي البلد حكومة نظامية لا تسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها. أو أنه وضع في أعناقهن أغلالًا من الديون وليس في وسعهن أن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها، فإن من لا يبالي بحق الله ولا حق عرضه لا يبالي بحقوق الناس. ولم أزل في حيرتي هذه

حتى قرأت بالأمس قصةً وقفت منها على سر هذا الخُلق الغريب في النساء، فأنا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت.

* * *

توفيت زوج أحد الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزنًا شديدًا؛ لأنها كانت أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه. فكان يروح عن نفسه بالاختلاف إلى الأندية الخاصة والعامة حتى ملها وسئمها. فمر بخاطره يومًا من الأيام أن يزور حي «مونمارتر»، وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها، فظل سائرًا بمركبته يستطرق من زقاقٍ إلى زقاقٍ ومن معبرٍ إلى معبر حتى وقف بباب خانٍ في زقاقٍ مظلم مهجورٍ سمع من داخله ضوضاء عظيمةً تكاد تتصدع لها أركانه، فانحدر إليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرةٍ من الصناع والعمال والغوغاء والمتبطلين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين، ما بين قائم وقاعد، وصائح وهاتفٍ، وممسكٍ قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين، ولابطٍ بالأرض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه، وراقصٍ يوقع حركات قدميه على نغمة شبَّابةٍ ينفخ فيها آخر. وقد عقدت الأبخرة المتصاعدة في سماء الحان سحبًا متكاثفةً يرى الرائي من خلالها بعد لأْيٍ مائدة خشبيةً مستديرةً في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسةٌ عارية الثياب إلا قليلًا، وتنثر على الناس نثاراتٍ من الورق الرقيق الملون،

والناس من حولها طائرون بها فرحًا، يداورونها، ويعابثونها، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحدٌ أحدًا. وربما مد بعضهم إليهم يده فجذبها من ثوبها جذبًا شديدًا حتى يكاد يزلقها من مكانها، أو دفعها في صدرها بعصاه فآلمها، وهي تبتسم مرة وتقطب أخرى. فلم يدرِ الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين، أم في حظيرةٍ من حظائر الوحوش الضارية، ولكنه رأى على كل حال منظرًا غريبًا لم يرَ مثله قط، وسكن إليه، وكذلك الملول، يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل ولو كان منظر الجحيم. فانتبذ في الحال مكانًا قصيًّا، وجلس إلى مائدةٍ منفردة، وألقى نظره على تلك الفتاة الراقصة فإذا هي رائعة الجمال، إلا أنه جمال مبعثر مذال، كما يعثر العاثر باللؤلؤة الثمينة بين القمامات المجتمعة. فلا زال ناظرًا إليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها، ونزلت تدور بعينها علَّها تجد من يدعوها إلى لقمةٍ تسد جوعتها، أو كأسٍ تبلُّ بها غلتها، حتى مرت على مقربة من الدوق، فدعاها للجلوس معه، فاستطيرت فرحًا وسرورًا؛ لأنها لم ترَ قبل اليوم زائرًا مثله في فخامة هيئته، وجلال منظره.

وأخذ يتحدث إليها ويسائلها عن نفسها، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد امرؤٌ قط في حياته من بؤسٍ وشقاء، وقد سمع في صوتها نغمةً تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات، فوقع في نفسه أنه إن

أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحسانًا عظيمًا. فسألها ألها بأحدٍ من الناس صلة من زواج أو مخالَّةٍ؟ فأطرقت برأسها وأجابت أن لا، فعرض عليها رأيه الذي رآه لها، فاستطارت به فرحًا وسرورًا، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت بجانبه في مركبته بها فسار إلى منزله.

وهناك تغير من شأنها كل شيءٍ، فأصبحت تلك الفتاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الأسمال البالية، والقبعة القذرة، والحذاء المرقع، سيدة فخمةً يتلألأ وجهها بنور العزة والكرامة، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة والرفاهية، حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشأن في الحياة، وأنَّ الدوق يوشك أن يتزوج منها.

وكان الدوق يعيش وحده في قصره لا يعاشر إلا خدمه، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه من حين إلى حين؛ لأنه كان منقطعًا لا زوج له ولا ولد، ولا قريب ولا نسيب، فكانت «مارسيل» ملهاته التي يتلَّهى بها في وحدته، وأنسه الذي يأنس به في وحشته. وكانت هي سيدة المنزل والآمرة الناهية فيه، لا ينازعها في ذلك منازع. وظل الأمر بينهما على ذلك شهورًا عدة.

وكانا يخرجان أصيل كل يوم في مركبتهما إلى ضاحية المدينة يرتاضان في غاباتها وبساتينها ساعة أو ساعتين ثم يعودان، فإنهما لعائدان ليلةً من الليالي من متنزههما إذ مرت بهما المركبة على

مقربة من حي «مونمارتر» فاقترحت عليه «مارسيل» أن يمرا بذلك الحي ليلهوا بمناظره الغريبة، ومشاهده العجيبة، فأذعن لرغبتها. وظلا سائرين يخترقان شوارعه وأزقَّته حتى بلغا الحان الذي وجدها فيه، فطلبت إليه أن يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصحابه وزائريه من بعدها، فلم يرَ في ذلك بأسًا، ودخل معها، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها. واتجها إلى بعض الموائد المنفردة فجلسا إليها، فما وقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجوا هياجًا عظيمًا، وهتفوا لها هتافًا شديدًا، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتنقونها، وهي تبسم لهم، وتعطف عليهم، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها، وأصعدوها إلى المائدة لترقص لهم، فكأنما ثارت في نفسها ثائرة الطرب القديم، فرقصت وافتنت في رقصها ما شاءت، حتى أتمت دورها، ثم نزلت وودعتهم وداعًا لطيفًا وانصرفت هي والدوق.

وهنا بدأت تشعر بملل شديدٍ من حياتها الحاضرة التي تحياها في قصر الدوق، حتى أصبح يخيل إليها أنَّ هذا القصر الذي تعيش فيه إنما هو سجن، وأنَّ هذا الرجل الذي يحبها ويكرمها وينزل على حكمها في جميع ما تحب وتشتهي إنما هو سجانها، وأنَّ هذا السكون الذي يحيط بها إنما هو سكون الموت الذي يخيم في فضاء القبور. فكانت إذا خلت بنفسها تراءى لها في فضاء خيالها منظر

الحان ومنظر زائريه، وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الأشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها، ويشدون يدها، ويصبون عليها فضلات كئوسهم، فتطرب لتلك الحياة الهائجة الثائرة، وتحن إليها حنين العاشق المفارق. ولم تزل هذه الفكرة تنمو في نفسها شيئًا فشيئًا حتى أخذت مكانها من قلبها، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة إلى عيشتها الأولى، فنهضت من فراشها ذات ليلةٍ والقصر ساكن هادئ قد هجع كل من فيه، فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد، وارتدت بدلًا منها أثوابها الأولى التي جاءت بها، وكانت لا تزال ملقاةً في بعض الغرف، وتسللت من باب القصر من حيث لا يشعر أحدٌ بمكانها، وأخذت سبيلها إلى حي مونمارتر.

وهكذا قضي عليها أن تشقى، بل هي التي قضت بنفسها على نفسها.

ولقد كان أسف الرجل عظيمًا جدًّا حينما تفقدها في صباح اليوم الثاني فلم يجدها، خصوصًا عندما رأى ثيابها وحلاها ملقاةً على بعض المقاعد وعلم أنها هي التي آثرت الفرار واختارته لنفسها، فبكاها كثيرًا، وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل.

ومر على ذلك عام وبعض عام، وبينما هو مقبلٌ على قصره في ليلةٍ من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأةً مسكينة تئن وتتوجع،

وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع، فدنا منها ليتبينها فإذا هي مارسيل، أو هي شبحٌ متهافتٌ باقٍ منها. فلما أحست به مدَّت ذراعيها إليه وقالت له بصوتٍ خافتٍ ضعيف: اغفر لي ذنبي يا مولاي! فدهش لمنظرها دهشةً شديدةً، ورق لحالتها، فأمر الخدم بحملها إلى القصر، فحملوها إلى غرفتها التي كانت تنام فيها، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب الأكباد، وتستذرف الدموع. ثم جلس إليها يسائلها عن شأنها، فقالت: إنها مريضةٌ مدنفة منذ شهورٍ عدةٍ، وإنها قد عجزت عن أن تجد سبيلًا إلى علاجها من دائها لفقرها وفاقتها، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق صدرها تمزيقًا، فلم تجد بدًّا من أن تأتي إليه لتستغفره من ذنبها وتسأله أن يعينها على أمرها؛ لأنها لا تعرف في الدنيا لها راحمًا سواه. فسألها لمَّ فرت من قصره، وما الذي كانت تنقمه منه؟ فقالت: لا أعلم، وإنما هو قدرٌ قدره الله ولا حيلة لامرئ فيما قدره وقضاه. فسألها أين كانت تعيش بعد فرارها، قالت: في المكان الذي أنقذتني منه، فأبيت لشقوتي وبلائي إلا أن أعود إليه لتنفذ فيَّ إرادة الله. فرثى لحالها، وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرها، فلم يستطع الطبيب أن يصنع شيئًا؛ لأنه جاء بعد فوات الأوان، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها إلى خالقها، وخلَّفت للدوق حسرةً فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته، فلم ينتفع بحياته طويلًا بعد ذلك.

لكل جوٍّ من الأجواء رائحةٌ خاصةٌ به يألفها أصحابه ويستنيمون إليها. فَحُولُوا أيها الرجال بين نسائكم وبين تلك الأجواء الخبيثة، ولا تقولوا إنهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها إلا البعيد عنها.

الفتاة والبيت

الكلمة التي قرَّظ بها المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي كتاب «الفتاة والبيت»:

حضرة صديقي الكاتب الفاضل أنطوان أفندي الجُمَيِّل

أهديت إليَّ كتابك «الفتاة والبيت» فأهديته إلى ابنتي؛ لأنه مكتوبٌ لها ولأترابها من الفتيات الناشئات، وربما كانت وكنَّ أقدر مني ومن الرجال جميعًا على فهم مزيته، وتقدير منزلته، فلما قرأته عادت إليَّ تقول أنني لم أُهْدِ إليها في حياتها خيرًا من هذا الكتاب.

سامحها الله، فقد كان فيما أهديت إليها كتاب «النظرات» فقد فضلته على كتاب أبيها، ولكن ما لها وللنظرات وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة، فهي فتاة على باب المستقبل يهمها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاةٌ في هذا العصر أن تعيش بدونها، والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها؛ لأنهما بقيةٌ من بقايا العصر الماضي، عصر المصادفات والاتفاقات، ولا يزال عصرهما لاصقًا بهما حتى اليوم، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوبًا يغنيها جماله عن الجمال، وتعيش

من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به - إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين - وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقي عليه - إن قدر لها حظ المكثرين - وكيف تكون شمسًا مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه، من زوجها إلى خادمتها، فتسعد بهم ويسعدون بها، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها حتى لا يخدعها الخدم عن مالها - إن كانت ذات خدم - أو تستغني عن معونتهم إن عجزت عن اتخاذهم، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة - في اليوم الذي تفقد فيه عائلها ومعينها - قطراتٍ من الرزق تقيم بها أودها، وتصون بها ماء وجهها؟

وكتابك - يا سيدي - هو الجواب عن جميع ما تطلبه، وتسائل نفسها عنه، فلا غرو إن أعجبها وأطربها، ولا عجب إن فضلته على كل كتاب حتى كتاب أبيها.

أشكر لك يا أنطوان تلك اليد البيضاء التي أسديتها إليَّ وإلى أمتك، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتياتهم، وأن يأخذوهن بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها، فما أحرزت الفتاة في بيتها خيرًا من كتاب «الفتاة والبيت».

الأربعون

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوءٍ وسكونٍ حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عثرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هويًّا.

سلامٌ عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للآمال والأحلام، وكنا نطير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل نعتقد أنَّ في العالم همومًا وآلامًا. وكان كل شيء في نظرنا جميلًا حتى الحاجة والفاقة، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها، كان كل منظرٍ من مناظرك قد لبس ثوبًا قشيبًا من نسيج الزهر الأبيض، فأصبح ًفتنة الأنظار، وشَرَكَ الألباب!

وكان يخيل إلينا انَّ هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطردًا متدفعًا لا يعترضه معترضٌ، ولا يلوي به عن طريقه لاوٍ إلى ما لا نهاية لاطراده وتدفعه.

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم أن يكون لنا مأربان من مآرب الحياة، فنظفر بأحدهما ًويفوتنا الآخر، أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب ونبيت دون البعيد.

وكان كل ما يستذرف الدمع من أعيننا هجر حبيبٍ أو طلعة رقيبٍ، أو أرق ليلةٍ أو ضجر ساعة، أو نظرةٌ شزر يلقيها علينا بغيض، أو نفثة شرٍّ يرمينا بها حقود، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا أن تطرد تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقذار والأكدار بين يديه، وتسلم لنا الحياة سائغةً لا كدر فيها ولا تنغيص.

سلامٌ عليك أيها الشباب الذاهب، سلامٌ على دوحتك الفينانة الغناء، التي كنا نمرح في ظلالها مرح الظباء الغفر في رملتها الوعثاء، ننظر إلى السماء فيخيل إلينا أنها مغدًى ومراحٌ لنا، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرٌّ رماحنا، فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أيِّ أقطارها شئنا.

أبكيك يا عهد الشباب، لا لأنني تمتعت فيك براح أو غزلٍ، ولا لأني ركبت مطيتك إلى لهوٍ أو لعبٍ، ولا لأني ذقت فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون، بل لأنك كنت الشباب وكفى!

أبكيك لأني كنت أرى في سمائك نجم الأمل لامعًا متلألئا يؤنسني منظره ويطربني لألاؤه، وينفذ إلى أعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب، فلما ذهبت ذهب بذهابك، فأصبح منظر تلك السماء منظر فلاةٍ موحشةٍ مظلمة لا يضيئها كوكب ولا يلمع فيها شعاعٌ.

أجل، لم أتمتع فيك بمتعةٍ من المتع، ولا بلذةٍ من الملاذ، ولا نلت في عهدك مأربًا من مآرب المجد أو الجاه، ولكني كنت أؤمل

وأرجو، وبذلك الأمل كنت أعيش، وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم.

أما اليوم – وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر – فقد احتجب عني كل شيء، ولم يبقَ بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعد عدتي لتلك الساعة الرهيبة التي أنحدر فيها إلى قبري.

مضي عهد الشباب وبدأت أختلف إلى الأطباء الثلاثة: طبيب العيون، وطبيب المعدة، وطبيب الأسنان، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي ميلا، وباعي ذراعًا، ونعى الناعون إليَّ كثيرًا من أصحابي وأترابي؛ أي إنهم نعوا إليَّ نفسي، ورأيت أصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي فأنكرت استحالة حالهم، واغبرار وجوههم، وتحمُّر خدودهم، وابيضاض شعورهم، فعلمت أنني أولهم، وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم. ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط، وطول البقاء، وحسن الختام؛ أي إن قوتي في هبوطٍ، ونشاطي في اضمحلالٍ، وسلامتي في خطر، وحياتي على وشك الانحدار إلى مغربها.

ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمرح والسرور فخيل إليَّ أنني غريب عنهم، لا صلة لي بهم ولا شأن لي معهم، وأنني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه. وانتقلت من النظر في شأن نفسي وشأن مستقبلي إلى النظر في شأن أولادي وشأن مستقبلهم؛ لأن مستقبلي أصبح ماضيًا، وغدًا أصبح أمس لا رجعة

له إلى الأبد. وسمعت كلمة «الجد» يهتف بها أحفادي الصغار، فلم أنكرها ولم أبتئس كأنني معترف أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها. ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير إبقاء على مصلحة أولادي الفقراء، كأنهم يقولون لي: إنك موشك أن ترحل فأعدَّ لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك. وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماحها، فأصبحت سمحًا كريمًا، عفوًّا غفورًا، لا أبغض أحدًا، ولا أحقد على أحد، ولا أقابل ذنبًا بعقوبة، ولا إساءة بمثلها، كأنني أقول في نفسي: ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكًا، إن لم يكن اليوم فغدًا؟ وأخذت أتحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر، لا لأن الأول أجمل من الثاني؛ بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة. وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء، فبكيتها ورثيتها ولم تُنسني إياها جلستي اليومِ في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدبًا وفضلًا ومجدًا وشرفًا؛ لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة، أما الثانية ففي أرض الحقيقة المرة المؤلمة.

وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذِّ الوهمية الكاذبة، فكنت أجد في نفسي غبطةً عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة، أو سيرة سيف بن ذي يزن، أو حروب عنترة، أو وقائع أبي زيد، أو أساطير الجن والشياطين. وحين آوي إلى مضجعي فأرى

في منامي رؤى بديعةً يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطامع الحياة ومآربها، وملاذ العيش ومباهجه. وحين أختلف إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة أمام حلقات أبوابهم، فأشعر بسكينةٍ في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء. والآن وقد حُرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها أنَّ أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل، وأنَّ الرؤى والأحلام هوس وجنونٌ، وأنَّ الأولياء والصالحين – أحياءً أكانوا أم أمواتًا – في شاغلٍ بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعًا ولا ضرًّا؛ أي إنني شقيت حين علمت، وكنت سعيدًا قبل أن أعلم. وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتًا جميلًا أعيش فيه عيش السعداء الآمنين في مدينة الأحياء، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبني لي قبرًا بسيطًا يضم رفاتي في مدينة الأموات. وكنت أدهش لبلاغة البليغ، وذلاقة الخطيب، وبراعة الشاعر، وقدرة الكاتب الصائغ، ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشيء ولا أعجب من شيءٍ؛ لأن مرآة نفسي قد صدئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها؟

ما أنا بآسف على الموت يوم يأتيني، فالموت غاية كل حيٍّ، ولكنني أرى أمامي عالمًا مجهولًا لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك

ورائي أطفالًا صغارًا لا أعلم كيف يعيشون من بعدي، ولولا ما أمامي ومَن ورائي ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت عليَّ؟!

ليكن ما أراده الله، أما ما أمامي فالله يعلم أني ما ألممت في حياتي بمعصيةٍ إلا وترددت فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يومًا من الأيام في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه، ولا لعظمةٍ غير عظمته، وما أحسب أنه يحاسبني حسابًا عسيرًا على ما فرطت في جنبه بعد ذلك. وأما مَن ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطاة في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين وسيبسط عليهم ظِلَّ رحمته وإحسانه.

وداعًا يا عهد الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء وانقضى كل شيء!

أيا عهدَ الشباب وكنت تَنْدَى على أَفْيَاءِ سَرْحَتِكَ السلامُ

الفهرس

الرثاء.. ٣
الشعر.. ١٣
الشهيدتان.. ٢٢
الدعاء.. ٢٧
ليلة في التمثيل.................................... ٣١
الكوخ والقصر.................................... ٣٤
على سرير الموت................................... ٣٧
غدر المرأة... ٤٦
الضاد.. ٥٢
سياحة في كتاب.................................... ٥٥
دمعة على الأدب.................................. ٦٢
الصحافة... ٦٥
أمس واليوم...................................... ٧١
البعث.. ٨٢
البيان.. ١٠٦
الناشئ الفقير..................................... ١١٥
قتيلة الجوع...................................... ١٢٨
الأدب الكاذب................................... ١٣١

إيفون الصغيرة «مترجمة»........................ ١٣٥
الملاعب الهزلية.................................... ١٤٠
الشيخ على يوسف.................................. ١٤٩
العظمة... ١٥٥
الإنتقاد.. ١٦١
يوم العيد.. ١٦٥
من الشيوخ إلى الشبان............................. ١٦٩
الموتى... ١٧٥
الزهرة الزابلة....................................... ١٨٠
جورجى زيدان...................................... ١٨٦
احترام المرأة.. ١٩٦
الانتقام «مترجمة»................................... ٢٠١
الخطبة الصامتة..................................... ٢٢٥
اللفظ والمعنى....................................... ٢٢٧
الآداب العامة....................................... ٢٣٢
المؤتمر الإسلامى................................... ٢٣٩
فى أكواخ الفقراء «مترجمة»....................... ٢٤٦
الضمير.. ٢٥٦
الماضى والحاضر.................................... ٢٥٩
الشيخوخة المتمردة.................................. ٢٦٥

عجائز بوشنج.. ٢٧٠
الأجواء... ٢٧٤
الفتاة والبيت... ٢٨٢
الأربعون... ٢٨٤

طبع بمطابع دار المعارف